تفسير سورة الفلق

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

٢٠١٦م - ١٤٣٧هـ

المركز الإسلامي للدراسات
لبنان - بيروت - الضاحية الجنوبية - أوّل حي ماضي
بناية حجازي - ط1 - تلفاكس: 00961.1.274519
البريد الالكتروني: alhadi@alhadi.org

المنشورات: بيروت - بئر العبد - سنتر الانماء 3 - 00961 70995421

تفسير سورة الفلق

السيد جعفر مرتضى العاملي

المركز الإسلامي للدراسات

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفلق

تقديم:

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه أجمعين، محمد وآله الطيبين الطاهرين، واللعنة على أعدائهم أجمعين من الأولين والآخرين إلى قيام يوم الدين.

وبعد..

فهذه دروس حول سورة الفلق، إستُخرجت من أشرطة التسجيل، وأُعيد النظر في صياغاتها، وربما في بعض مضامينها ودلالاتها، ثم قدمت للطبع، على أمل أن يجد فيها طالبها بعض الفائدة والنفع.

ونتمنى على قارئها أن يتحفنا بما يراه نقصاً أو خللاً، فعسانا نتداركه في الطبعات اللّاحقة.

ولا ندعي لأنفسنا أننا قد كشفنا عن مكنونات هذه السورة المباركة، وبلغنا الغايات في تلمس دقائقها وحقائقها، فنحن أعجز عن هذا الأمر مما قد يظن، أو ما ربما نظنه بأنفسنا، ولكن ما لا يُدرك كله لا يُترك جُلّه. وقديماً قيل: على قدري غلا قدري.

وبعد..

فإننا نسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجعل ثوابه لوالدينا، وأهل حزانتنا، وكل من كان من أهل الإيمان من أولياء أمير المؤمنين، والأئمة الطاهرين «صلوات الله عليه وعليهم أجمعين»..

بيروت ـ لبنان

حرر بتاريخ ٣/ جمادى الآخرة، وهو المصادف ليوم شهادة الصديقة الطاهرة/ ١٤٣٧ هـ.ق./ ١٣/ آذار ٢٠١٦م.ش.

جعفر مرتضى الحسيني العاملي

الفصل الأول :

ممهدات..

سورة الفلق:

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

صدق الله العلي العظيم

المعوِّذتان في كلام المعصوم:

١ ـ عن النبي «صلَّى الله عليه وآله» قال: «نَزَلَتْ عَلَيَّ آياتٌ لَمْ يَنْزِلْ مِثْلُهُنَّ: المُعَوِّذَتَانِ»(١).

٢ ـ عن الإمام الباقر «عليه السلام»، قال: «مَنْ أَوْتَرَ بالْمُعَوِّذَتَيْنِ و (قُلْ هُو اللهُ أَحَدٌ) قيلَ لَهُ: أَبْشِرْ يا عَبْدَ اللهِ فَقَد قَبِلَ اللهُ وِتْرَكَ»(٢).

---

(١) البرهان (ط مؤسسة البعثة) ج٥ ص٨٢٠ ونور الثقلين (تفسير) ج٥ ص٧١٦ وكنز الدقائق (تفسير) ج١٤ ص٥٣٩ ومجمع البيان (تفسير) ج١٠ ص٤٩١ وجوامع الجامع (تفسير) ج٣ ص٨٧٧ وزبدة التفاسير ج٧ ص٥٥٩.

(٢) ثواب الأعمال ص١٥٧ و (منشورات الشريف الرضي) ص١٢٩ والبرهان (تفسير)

٣ ـ عن النبي «صلَّى الله عليه وآله» أنه قال لعقبة بن عامر: «يا عقبة! ألا أعلّمك سورتين هما أفضل (أو من أفضل القرآن) سور القرآن؟!

قلت: بلى، يا رسول الله!

فعلّمني «المعوّذتين»، ثمّ قرأ بهما في صلاة الغداة، وقال لي: اقرأهما كلّما قمت ونمت»(١).

صلاة الغداة هي صلاة الصبح.

وكأنه «صلَّى الله عليه وآله» حين قرأ بالمعوذتين في صلاة الغداة أراد أن يدفع توهم كون هاتين السورتين عوذتين، إذ لا يقرأ في الصلاة بعد الفاتحة

ج٨ ص٤٣٦ و (ط مؤسسة البعثة) ج٥ ص٨٠٩ و ٨٢٠ ونور الثقلين (تفسير) ج٥ ص٧٠١ و ص٧١٦ و ٧٢٤ والأمالي للصدوق ص١١٥ ووسائل الشيعة (آل البيت) ج٦ ص١٣٢ و (الإسلامية) ج٤ ص٧٩٩ وعدة الداعي ص٢٨١ وبحار الأنوار ج٨٤ ص١٩٤ وج٨٩ ص٣٦٤ ومستدرك سفينة البحار ج٨ ص٤٨٢ وجوامع الجامع (تفسير) ج٣ ص٨٧٧ ومجمع البيان (تفسير) ج١٠ ص٤٩١ وزبدة التفاسير ج٧ ص٥٥٩ وكنز الدقائق (تفسير) ج١٤ ص٥٠٠ و ٥٣٩ و ٥٥٣ وأعلام الدين ص٣٨٧.

(١) مستدرك الوسائل ج٤ ص٢٩١ ومجمع البيان ج١٠ ص٥٦٧ و (ط الأعلمي) ج١٠ ص٤٩١ وزبدة التفاسير ج٧ ص٥٥٩ والبرهان (تفسير) ج٥ ص٨٢٠ ونور الثقلين (تفسير) ج٥ ص٧١٦ وكنز الدقائق (تفسير) ج١٤ ص٥٣٩ والكشف والبيان (تفسير الثعلبي) ج١٠ ص٣٣٧.

في الركعتين الأوليين إلا ما لا ريب في قرآنيته.

٤ ـ روى الكليني، عن علي بن إبراهيم، عن أحمد بن بكر بن صالح، عن سليمان الجعفري، عن أبي الحسن «عليه السلام» قَالَ: سَمِعْتُه يَقُولُ: مَا مِنْ أَحَدٍ فِي حَدِّ الصِّبَا يَتَعَهَّدُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ قِرَاءَةَ «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ» و «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ» كُلَّ وَاحِدَةٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، و «قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ» مِائَةَ مَرَّةٍ، فَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ فَخَمْسِينَ، إِلَّا صَرَفَ الله عَزَّ وجَلَّ عَنْه كُلَّ لَمَمٍ أَوْ عَرَضٍ مِنْ أَعْرَاضِ الصِّبْيَانِ، والْعُطَاشَ، وفَسَادَ المَعِدَةِ، وبُدُور الدَّمِ أَبَداً مَا تُعُوهِدَ بِهَذَا حَتَّى يَبْلُغَه الشَّيْبُ.

فَإِنْ تَعَهَّدَ نَفْسَه بِذَلِكَ، أَوْ تُعُوهِدَ كَانَ مَحْفُوظاً إِلَى يَوْمِ يَقْبِضُ الله عَزَّ وجَلَّ نَفْسَه(١).

ونقول:

١ ـ قد قرئت كلمة بدور بالباء الموحدة، وقالوا: المراد بها الإسراع والحدة. ولعل المراد به: غلبته، بحيث لا يقدر على معالجته ودفعه(٢).

ولكننا نحتمل احتمالاً قوياً: بأن تكون هذه الكلمة مصحفة عن كلمة يدور بالياء المثناة.

٢ ـ **وهذا يعني:** أن هذه الرواية المباركة تحدثت عن الدورة الدموية في

---

(١) الكافي ج٢ص٦٢٣ ووسائل الشيعة (آل البيت) ج٦ ص٢٢٨ و (الإسلامية) ج٤ ص٨٧١ ومرآة العقول ج١٢ ص٥١٢ والبرهان (تفسير) ج٥ ص٨٠٩ ونور الثقلين (تفسير) ج٥ ص٧٠٢ و ٧١٦ وكنز الدقائق (تفسير) ج١٤ص٥٤١ و ٥٠٢.

(٢) شرح الكافي للمولى محمد صالح المازندراني (ط سنة ١٣٨٨ هـ ق) ج١١ ص٥٥.

الجسم الإنساني، وأنها تتواصل وتستمر منذ الصبا، وإلى حين يبلغه الشيب. وأن قراءة هذه السور، بهذا النحو، تعطي هذه الفائدة في جملة فوائد أخرى ذكرتها.

ولـو كانت الكلمة بالباء الموحدة، فـإن تفسيرها بما ذكره المولى محمـد المازندراني يستبطن الإشارة إلى الدورة الدموية أيضاً، فإن اندفاع الدم وشدته، وحدته إنما هو نتيجة ضخ الدم، انسجاماً مع الدورة الدموية المشار إليها.

٣ ـ ونحن نعرف من خلال أحاديث النبي «صلَّى الله عليه وآله» وأهل بيته «عليهم السلام»، والتي ظهر صدقها بنحو قاطع في المجال العملي: أن لآيات القرآن، وللأدعية المأثورة آثـارها العظيمة في الحياة، وعـلى مختلف الكائنات، وهي أثار مشهودة في علاج الأمراض، ودفع الأسواء والشرور، وجلب الخير، ودفع كل شر وضير.

فلا غرابة في تأثير قراءة الآيات، والأدعية المأثورة في الماديات، وفي إصلاح الأجسام، وسوى ذلك.

٤ ـ غير أن ما نحب لفت النظر إليه هنا: أن الحديث عن الدورة الدموية على لسان الأئمة الطاهرين «صلوات الله عليهم» قد سبق ابن النفيس (علي بن أبي الحزم المتوفى سنة ٦٨٧هـ)، فلم يكن ابن النفيس أول من اكتشفها كما يزعمون[١].

سورة الفلق ست آيات أو خمس!!:

ويلاحظ هنا: أنهم يقولون: إن سورة الفلق خمس آيات، فهم يسقطون

---

(١) الطب العربي للدكتور أمين أسعد خير الله ص٦٤ وانظر معجم الأطباء للدكتور أحمد عيسى ص٢٩٢ ـ ٢٩٦.

آية ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ من العدد. ويدَّعون: أنها جزء من سورة الفاتحة فقط.

وهذا باطل، فإن آية: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ جزء من جميع السور، باستثناء سورة التوبة.

وقولهم هذا يستلزم القول بزيادة مئة وثلاث عشرة آية في القرآن.

وقد أجمع المسلمون على عدم الزيادة في القرآن.. فما معنى إجماعهم على شيء، ثم ينقضونه بهذه الادعاءات الباطلة، والإستحسانات الباردة؟!

وقد روي عن ابن عمر قال: نزلت ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ في كل سورة(١).

وعن ابن عباس: «كان النبي «صلَّى الله عليه وآله»، لا يعرف فصل السورة ـ وفي لفظ: خاتمة السورة ـ حتى ينزل عليه ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾»(٢).

---

(١) الدر المنثور (ط دار الفكر سنة ١٤١٤هـ.) ج١ ص٢٠ و (ط دار المعرفة) ج١ ص٧ عن الواحدي، وأسباب النزول ص١٠ والإتقان ج١ ص٧٩ و (ط دار الفكر) ج١ ص٢١٢.

(٢) الدر المنثور (ط دار الفكر سنة ١٤١٤ هـ ق) ج١ ص٢٠ و (ط دار المعرفة) ص٧ عن أبي داود، والبزار، والطبراني، والحاكم، وصححه، والبيهقي في المعرفة، وراجع ج٦ ص٢٨٩.

وراجع: نيل الأوطار ج٢ ص٢٢٨ وعمدة القاري ج٥ ص٢٩٢ ومسند الحميدي ج١ ص٢٤٣ والمعجم الكبير ج١٢ ص٦٤ وكتاب الأوائل للطبراني ص٧٠ وشعب الإيمان للبيهقي ج٢ ص٤٣٨ والجامع الصغير ج٢ ص٣٦٢ وفيض

وعن ابن عباس أيضاً: «كان المسلمون لا يعرفون انقضاء السورة حتى تنزل ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فإذا نزلت عرفوا (علموا) أن السورة قد انقضت»(١).

وهـذا يشير إلى أن نزول هـذه الآية المباركة لم يكن لمجرد الفصل، بل لأن لها موقعاً في السورة اللاحقة لا بد من رعايته لها.

وعن ابن المبارك، وكذا عن ابن عمر، وأبي هريرة من ترك ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فقد ترك مئة وثلاث عشرة آية(٢).

وقد استدل الرازي في تفسيره على أن ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ آية من كل سورة بقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(٣)، وأن

القدير ج٥ ص٢٣٨ وأسباب نزول الآيات ص١٠ وتفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير) ج١ ص١٧ والعجاب في بيان الأسباب ج١ ص٢٢٤ وفتح القدير ج١ ص١٧.

(١) الدر المنثور ج١ ص٢٠ (ط سنة ١٤١٤ هـ.ق) و (ط دار المعرفة) ج١ ص٧ عن الحاكم وصححه، والبيهقي في سننه، وفي شعب الإيمان عن أبي عبيد، والواحدي. والمستدرك للحاكم ج١ ص٢٣٢ والسنن الكبرى للبيهقي ج٢ ص٤٣ والإتقان ج١ ص٢١١.

(٢) التفسير الكبير ج١ ص٢٠٨ وفواتح الرحموت (بهامش المستصفى) ج٢ ص٥ وراجع: الدر المنثور ج١ ص٢٠.

(٣) الآية ٩ من سورة الحجر.

ذلك هو ما ذهب إليه أصحابه، فراجع كلامه[١].

وبما ذكرناه يتضح: أنه لا بد من زيادة عدد الآيات رقماً واحد في جميع سور القرآن باستثناء سورة الفاتحة، وسورة التوبة. فيكون عدد آيات سورة الفلق هو ست آيات لا خمس.

المعوذتان عند ابن مسعود:

ذكرنا في كتابنا: «حقائق حول القرآن الكريم»: أن ابن مسعود كان يرى أن المعوذتين ليستا من القرآن. وكان يحذفهما من المصحف[٢].

---

(١) راجع: التفسير الكبير ج١ ص٢٠٨ وغرائب القرآن للنيسابوري (بهامش جامع البيان) ج١ ص٧٩.

(٢) راجع: صحيح البخاري ج٣ ص١٤٤ ومشكل الآثار ج١ ص٣٣ و ٣٤ ومسند أحمد ج٥ ص١٢٩ و ١٣٠ وبعدة أسانيد، وتفسير القمي ج٢ ص٤٥٠ وبحار الأنوار ج٨٩ ص٣٦٣ ـ ٣٦٤ عنه، والمعتصر من المختصر ج٢ ص٢٥١ والتفسير الكبير للرازي ج١ ص٢١٣ والإتقان ج١ ص٦٥ و ٧٩ و ٨٠ وراجع ص٦٤ وإرشاد الساري ج٧ ص٢٤٢ وتفسير الصراط المستقيم ج١ ص٤١٥ وفواتح الرحموت (بهامش المستصفى) ج٢ ص٩ وفتح الباري ج٨ ص٥٧٠ و ٥٧٣ ومناهل العرفان ج١ ص٢٦٨ والفقه على المذاهب الأربعة ج٤ ص٢٥٨ وكنز العمال ج٢ ص٣٥٦ و ٣٥٧ عن أحمد، والحميدي، والبخاري، ومسلم، وابن حبان، والدارقطني في الافراد، والدر المنثور ج٦ ص٤١٦ عن بعض من تقدم، وعن: البزار، والطبراني، وابن مردويه، ومجمع الزوائد ج٧ ص١٤٩ و ١٥٠

وهناك من حاول إنكار نسبة هذا الأمر إلى ابن مسعود.

وقد ذكرنا تفاصيل ما قيل في ذلك في كتابنا: «حقائق حول القرآن الكريم» ص ٤٨١ ـ ٤٨٧.

وربما كان ابن مسعود قد ظن أن هاتين السورتين مجرد عوذتين، كان رسول الله «صلَّى الله عليه وآله» يعوِّذ بهما الحسن والحسين..

ثم ظهر له في وقت متأخر أنهما من القرآن.

ويبدو: أن موقف ابن مسعود قد أثَّر في بعض الناس، وأن هذا الأثر قد استمر إلى عهد الإمام الصادق «عليه السلام»، فقد روي عَنْ صَابِرٍ مَوْلَى بَسَّامٍ قَالَ: أَمَّنَا أَبُو عَبْدِ الله فِي صَلَاةِ الْمَغْرِبِ، فَقَرَأَ الْمُعَوِّذَتَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: هُمَا مِنَ الْقُرْآنِ(١).

وسئل «عليه السلام» عن المعوذتين: «أهما من القرآن»؟!

فقال: «هما من القرآن».

عن بعض من تقدم، والجامع لأحاكم القرآن ج٢٠ ص٢٥١ وراجع محاضرات الأدباء، المجلد الثاني ص٤٣٤ والإيضاح لابن شاذان ص٢٢٩ و ٥٧ والفهرست لابن النديم ص٢٩ وكشف الأستار عن مسند البزار ج٣ ص٨٦ وشرح الشفاء للقاري ج٢ ص٣١٥. وأكذوبة تحريف القرآن ص٢٨ عن بعض من تقدم وعن مصنف ابن أبي شيبة ج١٠ ص٥٣٨ وعن روح المعاني ج١ ص٢٤ .

(١) الكافي ج٣ ص٣١٧ ووسائل الشيعة (آل البيت) ج٦ ص١١٥و (الإسلامية) ج٤ ص٧٨٦ ومرآة العقول ج١٥ ص١١٥ والبرهان (تفسير) ج٥ ص٨١٩ ونور الثقلين (تفسير) ج٥ ص٧١٦ وكنز الدقائق (تفسير) ج١٤ ص٥٤٤.

فقال الرجل: إنهما ليستا من القرآن في قراءة ابن مسعود، ولا في مصحفه!

فقال «عليه السلام»: «أخطأ ابن مسعود». أو قال: «كذب ابن مسعود، وهما من القرآن»[١].

وعن أبي بكر الحضرمي، قال: قلت لأبي جعفر «عليه السلام»: إن ابن مسعود كان يمحو المعوذتين من المصحف.

فقال: كان أبي يقول: «إنما فعل ذلك ابن مسعود برأيه. وهما من القرآن»[٢].

---

(١) طب الأئمة لابن بسطام ص١١٤ ووسائل الشيعة (آل البيت) ج٦ ص١١٥ و (الإسلامية) ج٤ ص٧٨٦ وهداية الأمة للحر العاملي ج٣ ص٤٣ وبحار الأنوار ج٨٢ ص٦٢ وج٨٩ ص٣٦٥ وج٩٢ ص١٢٦ والبرهان (تفسير) ج٥ ص٨١٤ ونور الثقلين (تفسير) ج٥ ص٧١٩ وكنز الدقائق (تفسير) ج١٤ ص٥٤٣.

(٢) تفسير القمي ج٢ ص٤٥٠ ووسائل الشيعة (آل البيت) ج٦ ص١١٦ و (الإسلامية) ج٤ ص٧٨٧ وبحار الأنوار ج٨٢ ص٦١ وج٨٩ ص٣٦٣ ومرآة العقول ج١٥ ص١١٥ والبرهان (تفسير) ج٥ ص٨١٩ ونور الثقلين (تفسير) ج٥ ص٧١٧ وكنز الدقائق (تفسير) ج١٤ ص٥٤١.

الفصل الثاني

شأن نزول سورة الفلق..

هل المعوذتان مكيتان؟!:

هناك من يقول: إن سورة الفلق قد نزلت في مكة.

وهناك من يقول: إنها مدنية.

ويقول الفريق الأول: إن لحن هذه السورة يشبه لحن السور المكية.

ونقول:

إن ادعاء اختلاف اللحن بين السور المكية والمدنية لا يمكن الاعتماد عليه في تحديد زمان النزول ومكانه. فمثلاً نحن لا نجد فرقاً بين سورة الزلزلة التي نزلت في المدينة، وبين سورة القارعة التي نزلت في مكة.

بل هناك التقاء واضح بين السورتين في طريقة البيان وفي المضامين أيضاً.

فالمعيار هو ما يثبته النقل في ذلك. كما أنه حين تتضمن السورة قرينة تدل على موضع أو زمان نزولها، كما لو تضمنت ذكراً لواقعة حنين، أو ذكراً لقضية المباهلة، أو تحدثت عن الإفك مثلاً، فلا مجال إلا لاعتبار السورة مدنية، لأن مضمونها قد دل على مدنيتها.

حديث سحر النبي صلى الله عليه وآله:

وتذرع القائلون بأنها مدنية: بما ورد، من أن يهودياً اسمه لبيد بن الأعصم

قد سحر النبي «صلَّى الله عليه وآله»، فقد ذكرنا في كتابنا: الصحيح من سيرة النبي الأعظم ج١٦ ص٢١٥ ـ ٢٢٨ الحديث الذي ذكره كثير من المفسرين عن سحر اليهود لرسول الله «صلَّى الله عليه وآله».

وسنذكر هنا خلاصة عن هذا الحديث، ونحيل القارئ الكريم إلى كتابنا: الصحيح من سيرة النبي الأعظم «صلَّى الله عليه وآله» إذا أراد الاطلاع على تفاصيل أكثر لهذا الحديث.

فنقول:

إن الحديث المشار إليه تضمن النقاط التالية:

١ ـ إن هذا السحر كان في شهر محرم من سنة سبع، وقيل: سنة ست للهجرة[١].

٢ ـ عن عائشة: «سَحَرَ رسولَ الله «صلَّى الله عليه وآله» رجُلٌ مِنْ بَني زُرَيْقٌ يُقالُ لهُ: لَبيدُ بنُ الأعْصَمِ حتَّى كانَ رسولُ الله «صلَّى الله عليه وآله» يُخَيَّلُ إلَيْهِ أنَّهُ كانَ يَفْعَلُ الشَّيءَ وما فَعَلهُ.

حتى إذَا كانَ ذَاتَ يَوْمٍ أو ذَاتَ لَيْلةٍ وهْوَ عِنْدي لكِنَّهُ دعا ودعا، ثُمَّ قال: يا عائِشَةُ، أشَعَرْتِ أنَّ الله أفْتأني فيما اسْتَفْتَيْتَهُ فيهِ؟ أتانِي رَجُلانِ فَقَعَدَ أحَدُهُما عِنْدَ رَأسِي والآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيَّ، فقال أحَدُهُما لِصاحِبِهِ: ما وجَعُ الرَّجُلِ؟ فقال: مَطْبُوبٌ.

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٣ ص٤١٠ وج١٢ ص٦٨ وج١٠ ص٥٧ وتاريخ الخميس ج٢ ص٤٠ والطبقات الكبرى لابن سعد ج٢ ص١٩٦ وعن فتح الباري ج١٠ ص١٩٢.

قال: مَنْ طَبَهُ؟

قال: لَبِيدُ بنُ الأعْصَمِ.

قال: في أيِّ شَيء؟

قال: في مُشْطٍ ومُشاطةٍ وجُفِّ طَلْعِ نخْلَةٍ ذكَرٍ.

قال: وأيْنَ هُوَ؟

قال: في بِئْرِ ذَرْوانَ.

فأتاها رسولُ الله «صلَّى الله عليه وآله»، في ناسٍ مِنْ أصْحابِهِ، فَجاءَ، فقال: يا عائِشةُ! كأنَّ ماءَها نُقاعَةُ الحِنَّاءِ، أوْ كأنَّ رُؤُوسَ نَخْلِها رُؤُوسُ الشَّياطِينِ.

قُلْتُ: يا رسولَ الله، أفَلا اسْتَخْرَجْتَهُ؟

قال: قَدْ عافانِي الله، فَكَرِهْتُ أنْ أُثَوِّرَ عَلى النَّاسِ فيهِ شرّاً، فأمَرَ بِها (أي البئر) فَدُفِنَتْ»(١).

٣ـ في نص آخر عن ابن عباس: أن الملكين أمرا بنزح الماء، ورفع الصخرة،

---

(١) صحيح البخاري ج٧ ص٣٠ كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، وكتاب: الطب، باب: هل يستخرج السحر وباب: السحر، وصحيح مسلم ج٧ باب السحر، وسبل الهدى والرشاد ج١٠ ص٥٦ وج٣ ص٤١١، وراجع: تاريخ الخميس ج٢ ص٤١ والمصنف لابن أبي شيبة ج٥ ص٤٣٥ وتفسير ابن كثير (ط دار الجيل) ج٥ ص٥٧٩ وأضواء على الصحيحين ص٢٧٣ وعن مسند أحمد ج٦ ص٦٣ و ٩٦ وج٣ ص٤١١ ومسند أبي يعلى ج٨ ص٢٩١ والطبقات الكبرى لابن سعد ج٢ ص١٩٦.

واستخراج الركية التي فيها السحر، وأن يحرقوها.

فبعث عماراً في نفر، فاستخرجوا الركية، فأحرقوها، فإذا فيها وتر، فيه إحدى عشرة عقدة.

وأنزلت عليه المعوذتان، فجعل كلما قرأ آية إنحلت عقدة[١].

٤ ـ عن عائشة: أنه «صلَّى الله عليه وآله» كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن[٢] وأنه بقي كذلك ستة أشهر.

---

(١) سبل الهدى والرشاد ج٣ ص٤١١ وج١٠ ص٥٦ و ٥٧ عن البيهقي، وراجع: تاريخ الخميس ج٢ ص٤١ والدر المنثور ج٦ ص٤١٧ عن ابن مردويه، وعن البيهقي في دلائل النبوة، ومكارم الأخلاق ص٤١٤ وبحار الأنوار ج١٨ ص٧٠ و ٧١ وعن ج٦٠ ص١٣ و ١٥ و ٢٤ وعن ج٨٩ ص٣٦٥ وعن ج٩٢ ص١٢٦ و ١٣٠ وعن فتح الباري ج١٠ ص١٩١ و ١٩٦ وعن تفسير مجمع البيان ج١٠ ص٤٩٢ والتفسير الصافي ج٥ ص٣٩٦ والتفسير الأصفى ج٢ ص١٤٩٣ وتفسير نور الثقلين ج٥ ص٧١٨ و ٧١٩ وأسباب نزول الآيات ص٣١٠ وزاد المسير ج٨ ص٣٣٣ والجامع لأحكام القرآن ج٢٠ ص٢٥٣ وج٥ ص٧١٨ وعن تفسير القرآن العظيم ج٤ ص٦١٥ وتفسير الجلالين ص٨٢٦ و ٨٣٠ ولباب النقول ص٢٢٠ والطبقات الكبرى ج٢ ص١٩٩ وموسوعة التاريخ الإسلامي ج١ ص٤٧١ وتأويل الآيات ج٢ ص٨٦٢.

(٢) عن صحيح البخاري ج٧ ص٢٩ كتاب: الطب، باب السحر، وتفسير القرآن العظيم (ط دار الجيل) ج٤ ص٥٧٩ وأضواء على الصحيحين ص٢٧٣ وعن فتح الباري ج١٠ ص١٩٩ والشفا بتعريف حقوق المصطفى ج٢ ص١٨١

وفي الوفاء: أربعين يوماً.

وقيل: سنة(١).

٥ ـ عن أنس: أن جبرئيل أتى النبي «صلَّى الله عليه وآله» بخاتم، فلبسه في يمينه، وقال: لا تخف شيئاً ما دام في يمينك(٢).

٦ ـ عن زيد بن أرقم: لما أخبر جبرئيل النبي: بأن يهودياً قد سحره أرسل علياً «عليه السلام»، فجاءه بها، فجعل كلما حل عقدة وجد لذلك خفة، فقام «صلَّى الله عليه وآله» كأنما نشط من عقال. «فما ذكر ذلك لليهودي، ولا رآه في وجهه»(٣).

وسبل الهدى والرشاد ج١٢ ص٦.

(١) تاريخ الخميس ج٢ ص٤١ عن كنز العباد، وعن الوفاء، والبخاري، وعن عون المعبود ج٤ ص٢٣٧ وعن البداية والنهاية ج٣ ص٢٩٠ وسبل الهدى والرشاد ج٣ ص٤١٣ وعن مسند أحمد ج٦ ص٦٣ وعن تفسير القرآن العظيم ج٤ ص٦١٤ وسير أعلام النبلاء ج٢١ ص١٠١.

(٢) سبل الهدى والرشاد ج٧ ص٣٢٣ عن ابن عدي، ولسان الميزان ج٢ ص٣٨٧ والكامل ج٣ ص٩ وميزان الإعتدال ج١ ص٦٤٢.

(٣) سبل الهدى والرشاد ج٧ ص٢١ عن أحمد، وعبد بن حميد، والبخاري، والنسائي، وأبي الشيخ، والبيهقي، والمصنف لابن أبي شيبة ج٥ ص٤٣٥ ومجمع الزوائد ج٦ ص٢٨١ عن الطبراني، والنسائي، وتفسير القرآن العظيم ج٤ ص٥٧٩ (ط دار الجيل) عن أحمد، والنسائي، والمعجم الكبير ج٥ ص١٧٩ و١٨٠ والمعرفة

٧ ـ عن عبد الرحمان بن كعب: أن بنات أعصم أخوات لبيد هن اللواتي سحرن النبي.

ولكن لبيد ذهب به، فأدخله تحت راعوفة البئر(١).

٨ ـ عن ابن عباس وعائشة: «فمرض «صلَّى الله عليه وآله»، وانتثر شعر رأسه، ولبث ستة أشهر يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيها»(٢).

٩ ـ قيل: قَتَلَ النبي «صلَّى الله عليه وآله» مَنْ سَحَرَه.

وقيل: عفا عنه(٣).

١٠ ـ وفي الروايات: أن سحر يهود بني زريق حبس النبي «صلَّى الله عليه

والتاريخ ج٣ ص٢٨٩ و ٢٩٠ وشمائل الرسول لابن كثير ص٦٥ و ٦٦ وسنن النسائي ج٧ ص١٣ وفتح القدير ج٥١ ص٥١٩ عن عبد بن حميد، وبحار الأنوار ج٣٨ ص٣٠٣ ومناقب آل أبي طالب ج١ ص٣٩٥ والدر المنثور ج٦ص٤١٧ والفايق في غريب الحديث ج٢ ص٢٩٥ والتبيان في آداب جملة القرآن للنووي ص١٨٣.

(١) سبل الهدى والرشاد ج٣ ص٤١٠ وج١٠ ص٥٧ عن ابن سعد، وتاريخ الخميس ج٢ ص٤١ عن كنز العباد، والطبقات الكبرى ج٢ ص١٩٨.

(٢) تاريخ الخميس ج٢ ص٤١ عن معالم التنزيل، وتفسير القرآن العظيم (ط دار الجيل) ج٤ ص٥٧٩ عن الثعلبي، وأسباب النزول (ط سنة ١٤١٠هـ) ص٤٠٥ وعن فتح الباري ج١٠ ص١٩٣ وموسوعة التاريخ الإسلامي ج١ ص٤٧٢.

(٣) تاريخ الخميس ج٢ ص٤١ والطبقات الكبرى ج٤ ص١٩٩.

وآله» عن خصوص عائشة سنة[١].

ونقول:

حديث سحر النبي في الميزان:

لا مجال لقبول حديث سحر النبي «صلَّى الله عليه وآله»، كما ورد في النصوص المتقدمة، لأسباب كثيرة، نذكر منها ما يلي:

أولاً: التناقض بين الروايات، فإنه يدلنا على وجود أمر مكذوب هو أحد المتناقضين على الأقل.

ومن شأن هذا: أن يوجب تسلل الشك إلى النصين المتناقضين معاً بنسبة متساوية.

ونذكر من هذه التناقضات على سبيل المثال:

ألف: هل استخرج النبي السحر وحلت عقده كما أمر به جبرئيل، أو أن ذلك لم يحصل، وقد شافى الله نبيه بدون ذلك؟!

ب: هل قتل النبي «صلَّى الله عليه وآله» لبيد بن الأعصم، أو عفا عنه؟!

ج: هل سحر لبيد بن الأعصم النبي «صلى الله عليه وآله»، أو أن الذي سحره هو أخوات لبيد؟!

د: هل وضع السحر في بئر ميمون، أو في بئر ذي أروان؟!

---

(١) راجع: المصنف للصنعاني (ط دار إحياء التراث العربي) ج١١ ص٩ وعن الشفا بتعريف حقوق المصطفى ج٢ ص١٨٢ وسبل الهدى والرشاد ج١٢ ص٥.

هـ: هل استمر أثر السحر أربعين يوماً، أو ستة أشهر، أو سنة؟ أم بقى أياماً؟!

و: هل شفي النبي «صلَّى الله عليه وآله» بسبب حل عقد السحر؟! أو بسبب قراءة آيات سورتي المعوذتين؟! أو شفي بسبب الخاتم الذي جاءه به جبرئيل؟! أو شفي بسبب تعويذ جبرئيل له «صلَّى الله عليه وآله» بالمعوذتين؟!

وقالوا: كانت عقد السحر إحدى عشرة عقدة. بعدد آيات سورتي المعوذتين.

ز: هل استخرج السحر من البئر، وجيء به إلى النبي «صلَّى الله عليه وآله»، أو أنه تركه خوفاً من فتنة تحدث، ثم طمّ البئر.

ح: هل الذي استخرج السحر من البئر، وجاء به إلى النبي «صلَّى الله عليه وآله» هو عمار بن ياسر؟! أو هو علي بن أبي طالب «عليه السلام»؟!

ثانياً: في الحديث المتقدم عن عائشة: أن أحد الرجلين قال لصاحبه: ما وجع الرجل؟

قال: مطبوب.

قال: وما طبه؟

قال: لبيد بن الأعصم..

قال: في ماذا؟ الخ..

مع أن التعبير الأنسب بالسياق هو أن يُقال: من طبه. ليقال: لبيد بن الأعصم، لأن المطبوب هو المسحور، فالسؤال هو عن الذي سحره «صلَّى الله عليه وآله».

ومن المعلوم: أن كلمة، «ما» يسأل بها عن غير العاقل، وكلمة «من» هي التي تستعمل في العاقل.

ثالثاً: ما معنى قوله «صلَّى الله عليه وآله» لعائشة: إنه لم يستخرج السحر من البئر، خوفاً من أن يثوِّر على الناس فيه شراً. فأي شر كان يمكن أن يثور على الناس بسبب استخراج السحر؟! فإن كان يخشى من أن يثور اليهود ضد المسلمين، ويبطشوا بهم؟

فيجاب:

بأنه لم يكن لليهود آنئذ في المدينة شوكة ولا قوة، لأن أمر بني النضير، وبني قينقاع، وبني قريظة كان قد حسم قبل ذلك بزمان.

وإن كان المُراد: أن تقع الفتنة بين المسلمين أنفسهم، فيجاب:

بأنه لا مبرر لفتنة كهذه..

بل يضاف إلى ما تقدم: أن الروايات تقول: استخرج السحر بواسطة علي أو عمار، وأبطل مفعوله كما تقدم، ولم تحصل فتنة، ولا ثار شر على الناس.

رابعاً: قولهم: إنه «صلَّى الله عليه وآله» كان يخيل إليه أنه فعل الشيء، وما فعله، وأنه كان يأتي النساء، وما يأتيهن، وأنه حبس عن خصوص عائشة مدة سنة.

بل في بعض الروايات: «فأقام رسول الله «صلَّى الله عليه وآله»، لا يسمع ولا يبصر، ولا يفهم، ولا يتكلم ولا يأكل ولا يشرب»[1].

---

(١) دعائم الإسلام ج٢ ص١٣٨ وبحار الأنوار ج٦٠ ص٢٣.

ومعنى هذا: أن السحر كما أثر في جسد النبي «صلَّى الله عليه وآله»، فلم يعد يسمع أو يبصر، وحبسه عن الكلام، ومنعه من الأكل والشرب، فقد أثَّر في عقله وإدراكه، حتى لم يعد يفهم، بل صار يرى أنه قد فعل الشيء، ولم يفعله.

وهذا معناه: أنه فقد توازنه، واختل إدراكه. فصار من الجائز أن يتخيل أنه قد صلى وهو لم يصل، وأنه قد بلَّغ ما أنزله الله عليه، وهو لم يبلِّغه، وأنه قد حج، أو صام، أو زكّى، أو تكلم بالصدق وهو لم يفعل شيئاً من ذلك.

ولعله يريد أن يأكل الطيبات، وإذ به يأكل الميتة أو غيرها من الخبائث، ويريد أن يقتل الكافر، فيقتل المؤمن، ويريد أن يدعو للإيمان وعبادة الله، وإذ به يدعو للكفر والشرك، وعبادة الشيطان ـ والعياذ بالله ـ.

فهل يكون مَنْ هـذا حاله مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**﴾؟!(١).

وهل يصح قول الله تعالى: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾(٣)، وهل يكون قوله وفعله وتقريره حجة؟!

خامساً: أليس هذا هو التطبيق الوقح لما ادَّعاه أعداء الله عليه حيث قالوا: ﴿**وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا**﴾(٤).

---

(١) الآيتان ٣ و ٤ من سورة النجم.

(٢) الآية ٧ من سورة الحشر.

(٣) الآية ٢١ من سورة الأحزاب.

(٤) الآية ٨ من سورة الفرقان.

وقال: ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾[١].

وقال فرعون «لعنه الله»: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَامُوسَى مَسْحُورًا﴾؟![٢].

فهل المقصود بهذه الترهات استصدار اعتراف من المسلمين، ومن داخل بيت النبي «صلَّى الله عليه وآله» نفسه، بأن نبيهم مسحور، مختل العقل والإدراك، فلا يجوز تصديقه، ولا يصح اتِّباعه؟!

فإن لم يصدِّق هذا الإدعاء أحد في ذلك العصر، فقد يأتي ولو بعد قرون من يصدق ذلك، لأنه لا يعرف النبي «صلَّى الله عليه وآله» ولم يره. وسيكون دليله أن هذه شهادة من داخل بيت رسول الله، وممن هم أقرب الناس إليه، وأعرفهم به وبأحواله.

نقول هذا، مع أن أحداً لا يستطيع أن يسجل أي شيء يدل على ما يدَّعون. فقد كان «صلَّى الله عليه وآله» مع الناس باستمرار، يدبر أمورهم، ويقود حروبهم ويشارك في مجالسهم، ويصلي بهم، ويتدخل في كل صغيرة وكبيرة، من موقع الحكمة والعقل، والوعي، والتدبير الصحيح.

أضف إلى ما تقدم: أنه لو حصل شيء من ذلك لم يقتصر نقل هذا الأمر على بضعة أشخاص، كعائشة وابن عباس، ولكان شاع وذاع، وطرق الأسماع.

كذب الرواية لا يعني تبرئة اليهود:

وحكمنا على هذه الروايات: بأنها مكذوبة لا يعني تبرئة اليهود من بذل

---

(١) الآية ٤٧ من سورة الإسراء.

(٢) الآية ١٠١ من سورة الإسراء.

المحاولة في هذه الاتجاه، بل ذلك هو المتوقع منهم، والمظنون بهم.

وإن كانت جميع المحاولات باءت بالفشل.

وقد فضحهم الله تعالى في كتابه الكريم، وعلى لسان رسوله، لتكون إخباراته «صلَّى الله عليه وآله» عن خفايا نوايا اليهود وغيرهم من أعدائه، وما يستخفون به من ذميم الأفعال، من دلائل صدقه، وعلائم نبوته.

ثلاثة دنانير فقط:

وذكرت بعض الروايات: أن اليهود جعلت لابن الأعصم، مقابل قيامه بهذا العمل ثلاثة دنانير فقط(١).

مع أنهم يقولون: إن لبيد كان موسراً، كثير المال(٢).

فما هذه الدناءة التي نجدها في هذا الرجل الموسر الكثير المال؟!

سبب موت لبيد:

وذكرت بعض الروايات المتقدمة: أن النبي «صلَّى الله عليه وآله» قد قتل لبيد بن الأعصم لأنه سحره.

وتقدم: أن روايات أخرى تقول: إنه «صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وآلِهِ» عفا عنه.

وفي بعضها: أنه «صلَّى الله عليه وآله» ما ذكر أمر سحره لذلك اليهودي،

---

(١) تاريخ الخميس ج٢ ص٤١ والطبقات الكبرى لابن سعد ج٢ ص١٩٧ وسبل الهدى والرشاد ج٣ ص٤١٠ وعن فتح الباري ج١٠ ص١٩٢.

(٢) دعائم الإسلام ج٢ ص١٣٨.

ولا رآه في وجهه حتى مات[١].

في حين نرى بعض روايات السحر تقول: إن غلاماً مر بلبيد، وفي أذنه قرط، فجذبه، فخرم أذن الصبي، فأخذ، فقطعت يده، فكوي منها، فمات[٢].

ونقول:

ألف: إن ما فعله لبيد بهذا الغلام، حيث خرم أذنه من أجل القرط دليل آخر على خسة لبيد، وجشعه، وعدوانيته أيضاً.

ب: من الواضح: أن حكم من يخرم أذن آخر ليس هو قطع اليد في الإسلام، فإن كان ذلك قد حصل له، فلا بد أن يكون من قطع يده هم أهل الغلام الذي خرمت أذنه، وربما كانوا من اليهود أيضاً.

ج: لم نعهد أن يموت الرجل إذا قطعت يده ثم كويت، بل يتوقع شفاؤه من مضاعفات قطع اليد.

الرسول بلا شعر؟!:

وقد ذكرت بعض الروايات المتقدمة: أن السحر قد أوجب مرض رسول الله «صلَّى الله عليه وآله»، وانتشر شعر رأسه.

وهذا أمر عجيب، فإننا لم نر ولم نسمع: أن السحر قد ترك على أي مسحور أثراً من هذا القبيل.

---

(١) راجع: الصحيح من سيرة النبي الأعظم ج١٦ ص ٢١٨.

(٢) دعائم الإسلام ج٢ ص١٣٨ وبحار الأنوار ج٦٠ ص٢٢ ومستدرك الوسائل ج١٣ ص ١٠٨.

ولو صح أن هذا الأمر قد حصل لرسول الله «صلَّى الله عليه وآله»، لاعتبره المؤرخون مفصلاً تاريخياً في حياته «صلَّى الله عليه وآله». ولتداولته الأمم والأجيال، ولتوقف عنده الباحثون والمحققون، ولكانت شهرته تضارع شهرة حرب بدر، وأحد، وحنين، وحجة الوداع، وما إلى ذلك.

ولو أن هذا الأمر قد حدث فعلاً، لنقلته لنا سائر زوجاته، ولتحدث عنه أصحابه الذين لم يحتجب عنهم بسبب أمر كهذا. كما تقدم.

ولو حدث هذا الأمر لتناقله الأعداء أيضاً على سبيل التندر والسخرية.

لا يأكل ولا يشرب:

وإذا كان «صلَّى الله عليه وآله» قد بقي سنة، أو ستة أشهر لا يأكل ولا يشرب، فإنه لن يبقى حياً طيلة هذه المدة أو تلك.

ابن الأعصم يخدم الرسول صلى الله عليه وآله:

ذكرت بعض تلك الروايات: أن لبيد بن الأعصم الذي سحر النبي كان يخدم رسول الله «صلَّى الله عليه وآله»[1].

ونقول:

أولاً: إن غدر اليهود، وسوء نظرتهم إلى رسول الله، ومحاولاتهم المكر به، والسعي لقتله، وإبطال أمره، وبث الشائعات ضده لم يكن خافياً على أحد. وقد قرره القرآن الكريم في آياته المتضافرة، وصرح بشدة عداوتهم للمسلمين.

---

(١) الدر المنثور ج٦ ص ٤١٧ عن ابن مردويه، والبيهقي في دلائل النبوة.

وقد قضى النبي «صلَّى الله عليه وآله» على يهود المدينة. أعني بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة. قيل: سنة ست، وسبع للهجرة. فما معنى أن يتخذ النبي يهودياً خادماً له؟! وهو يعلم أن ما جرى لهم سوف يزيد من حقدهم، ومن حرصهم على المكر والغدر به؟!

وكيف يأمن «صلَّى الله عليه وآله» هذا اليهودي على نفسه وعلى عائلته، وسائر شؤونه؟! ألم يكن في المسلمين من يقوم بهذه الخدمة إن كان «صلَّى الله عليه وآله» بحاجة إليها؟!

ثانياً: إذا كان هذا اليهودي ميسور الحال كثير المال، فكيف رضي بخدمة من قتل قومه، أو أخرجهم من ديارهم، بعد غدرهم به، ومما لأتهم أعداءه عليه؟!

ألا يكون إقدام هذا الثري الموتور على خدمة عدو دينه، وقاتل قومه مثار ريب وشبهة؟! وأن إحتمال وجود أهداف شريرة لدى ذلك اليهودي، يزداد قوة، وإلحاحاً على وجدان كل مطَّلع على هذا الأمر.

ثالثاً: لو كان يريد ابن الأعصم التزلف للنبي «صلَّى الله عليه وآله»، فكان يمكنه أن يفعل ذلك ، من دون أن يعرض نفسه للشكوك، بأن يرسل إلى النبي «صلَّى الله عليه وآله» من يخدمه ويقضي حاجاته. وهو قادر على ذلك لكثرة ماله، كما تقدم.

تأثير السحر في الأنبياء:

١ ـ قد يُقال: إن للأمراض الجسدية أسباباً كثيرة، كبعض المآكل والمشارب.

وبعض الأعمال التي تضر بالجسد، كالسهر الطويل، أو مواجهة موجات البرد أو الحر، من دون وقاية كافية، وما إلى ذلك.

كما أن للعين الحاسدة تأثيراتها السلبية على المحسودين. فتتسبب لهم بمرض، أو بضعف جسدي، ونحو ذلك.

ولعل لبعض ما يمارسه السحرة أيضاً آثاراً على الجسد من خلال تسخيرهم بعض الجن على بعض الآدميين لإيذائهم في أجسادهم.

ومن المعلوم: أن الأنبياء يمرضون كسائر الناس. وإيذاء الأنبياء في أجسادهم أمر مشهود، فقد يتعرضون للقتل أو للجرح، أو للإرهاق والتعب الجسدي من الجن والإنس على حد سواء.

ففي الجن المؤمن والكافر، والجاحد والعاصي، فكما يؤذى الأنسي العاصي النبي في جسده، فكذلك الجني العاصي والمتمرد يؤذي النبي في جسده أيضاً.

وهذا هو ما أشار إليه أيوب النبي فيما حكاه الله عنه بقوله: ﴿**وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَاب**﴾[1].

ومن المعلوم: أن تسليط بعض الأرواح الشريرة على أجساد الأنبياء لإتعابهم وإيذائهم لا يضر بمقامهم، ولا يقدح في نبوتهم «عليهم السلام».

بل يكون ذلك من أسباب ظهور عظيم صبرهم، وحقيقة ملكاتهم وقدراتهم في مواجهة المتاعب والمصاعب في سبيل دعوتهم.

٢ ـ ولكن الأنبياء محفوظون من السحر الذي يؤثر في العقول، ويفسد

---

(١) الآية ٤١ من سورة ص.

القدرات الإدراكية، أو يحد من توهجها، أو يخل بالفهم والتمييز بين الأمور.

وهذا هو موضع كلامنا في روايات سحر لبيد بن الأعصم للنبي الأكرم «صلَّى الله عليه وآله».

٣ ـ ليس في قول النبي أيوب ما يدل على أن الشيطان قد أخل بقدرة التمييز، أو الفهم أو الإدراك لديه «عليه السلام»، بل هو يقول: إنه يتعرض للتعب، وللأذى بسبب ذلك الشيطان، الذي هو من الجن.

الفصل الثالث

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ..

بداية:

تقدم: أن الآية الأولى من هذه السورة هي ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾، فيفترض البدء بتفسيرها..

غير أننا لم نفعل ذلك اكتفاء بما ذكرناه حولها في تفسير سورة الفاتحة..

﴿قل﴾:

وأول ما يواجهنا بعد البسملة في هذه السورة قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾..

ولنا مع هذه الكلمة وقفات هي التالية:

كلمة ﴿قل﴾ من القرآن:

قد يحسب بعض الجاهلين المتطفلين على العلم وأهله، وقد يكون بعضهم من ذوي النوايا الشريرة: أن كلمة «قل» هنا وفي سائر الموارد ليست جزءاً من النص القرآني، بل هي مجرد أمر بالنطق بهذه الكلمة أو بتلك الآية، فهي كقولك لمن ترسله في أمر: قل لفلان: إن أباه مريض.. فإن هذا الرسول سيقول لفلان: إن والدك مريض، ويحذف كلمة قل لفلان، لأنها ليست جزءاً من الرسالة.

وهذا كلام باطل بلا ريب، فإن كلمة «قل» لو استبعدت من الآيات القرآنية لفسد المعنى وتحول مساره، وانطفأت أنواره. فمثلاً: لو قال: ﴿**يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ**﴾ بحذف كلمة: «قل» لفهم السامع والقارئ: أن الله تعالى هو الذي يرفض عبادة ما يعبده الكافرون، مع أن الله تعالى لا يعبد أحداً..

والمطلوب في الآية: أن يكون القائل هو المخاطب كالنبي، أو الإنسان مثلاً.

كما أن كلمة «قل» لو حذفت من سورة الفلق، لصار معنى الآية: أن الله تعالى هو الذي يتعوذ برب الفلق، من شر ما خلق، ومن شر غاسق إذا وقب الخ..

مع أن المطلوب: هو أن يكون النبي «صلى الله عليه وآله» أو صاحب الحاجة هو الذي يقول: أعوذ برب الفلق الخ..

أهمية كلمة قل:

ولا ريب في أن لكلمة «قل» أهمية بالغة في الموارد القرآنية التي وردت فيها.. ففي سورتنا هذه يريد الله تعالى من نبيه أن يصرح بهذه الاستعاذة، ويعلنها، وأن يشهرها.. ولذلك لم يقل له: عذ، أو تعوذ برب الفلق. فإن التعوذ قد يحصل من دون أن يشعر به الآخرون، وقد يحصل المتعوذ على مبتغاه، وقد لا يحصل..

ولكن الله تعالى هنا يريد من أشرف الخلق، وأجلهم وأعظمهم منزلة وأسماهم مقاماً عنده، وأقربهم زلفة لديه أن يبادر إلى الجهر بالاستعاذة، ليعرف الخلق كلهم أهمية هذا الأمر، وليكون نبيهم الأعظم قدوة لهم،

وليضفي على هذا الأمر هالة روحية غامرة.. لاسيما إذا أدركوا أنهم أحوج إلى الاستعاذة من أعظم الأنبياء وأكرمهم على الله تعالى.

فتكون كلمة «قل» لها دلالة تعليمية في غاية الأهمية، فإنه إذا كان من اصطفاه الله تعالى لدينه ولقيادة البشرية مأموراً بالاستعاذة بالله، واللجوء إليه.. فهل يمكن أن يكون سائر الناس في غنى عن طلب العون من الله سبحانه في مواجهة الشرور المختلفة؟!

التوازن هو الهدف:

إن الإنسان بحسب طبعه، وما يُفهم من ظواهر أحواله، ينزع إلى التفرد والاستقلال بالقرار، وينحو إلى الاعتقاد بأن له من القدرات، والإمكانات، والطاقات، والمقامات ما يتفوق به على غيره. ويرى أنه هو الذي يصنع مستقبله، من خلال ما يبذله من جهد وعناء، فهو يعمل ويتعب، ويكد وينتج، ويخترع ويربح، ويجني الأموال والثروات، ويجترح الغرائب والعجائب، ولا يحتاج إلى معونة أحد..

ولكن الله تعالى يريد لهذا الإنسان أن يعلم: أنـه كما يبني ويعمر، فإنه أيضاً يهدم ويدمر، وكما يصلح، فإنه يفسد، وكما يخطئ يصيب، وهو أيضاً ينجح ويفشل، وما إلى ذلك..

كما أنه حتى لو التهم الدنيا بما فيها، فإنه دائماً يرى أن ثمة بوناً واسعاً، وفرقاً شاسعاً بين آماله، ونتائج أفعاله..

وكل ذلك يفرض بذل الجهد لإعادته إلى دائرة التـوازن.. وأن يعـرف

حده، فيقف عنده، ولا يستطيل ظله، وعليه الاعتراف: بأن عليه أن لا يتجاوز حدوده.. لأن ذلك من شأنه أن يضيع عليه الكثير من الفرص، وربما تؤخذ عليه المذاهب، وتوصد أمامه الأبواب، ويرى نفسه في نهاية المطاف إما فريسة للخيبة والاحباط، أو مضطراً إلى الاستسلام، للواقع، والسعي لإصلاح المسار، والتعامل مع السنن بمرونة وواقعية، وفق ما يريده الله تعالى.

إن عليه أن يدرك أنه ليس جديراً بالمقام الذي يدَّعيه لنفسه، وأنه لا يستطيع أن يقطع صلته مع الله، لأنه بحاجة إليه في فيوضاته المختلفة في كل لحظات حياته، وفي جميع حركاته وسكناته، والله تعالى هو الذي يمنحه ويعطيه، وهو الذي يربيه وينمِّيه، ويحرسه ويحميه، وليس له بدون الله قوة ولا حول..

ونجد في القرآن الكريم الكثير الكثير من التوجيه والتعليم للناس، وضرب الأمثال، وبيان الحقائق والعبر للبشر لإعادتهم إلى التوازن، وتعريفهم بأحجامهم، وإفهامهم أن مجرد كونهم مختارين وذوي عقول، ولديهم قدرات وامكانات لا يعني أنهم قد خرجوا عن دائرة القدرة الإلهية، أو أنهم أصبحوا في غنى عنه سبحانه وتعالى.

بل هم كانوا وما زالوا، وسيبقون في دائرة العجز المطلق، حتى لو كانوا فراعنة يدَّعون الربوبية لأنفسهم.

قال تعالى وهو يشير إلى هذا العجز: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ**

ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾[١].

وقال إبراهيم للنمرود: ﴿..فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ..﴾[٢].

وهـذا العجز الشامل، والضعف الكامل، والحاجة إلى الفيض الإلهي المستمر عليه وعلى كل مخلوق، يكرس حقيقة حاجة الإنسان المستمرة إلى مصـدر الفيض والعطاء، ليعوذ بـه في حاجاته ليعطيه، وفي ضعفه ليقوِّيه، وفي خوفه ليصونه ويحميه. من شر ما خلق، ومن شر غاسق إذا وقب الخ..

إن الإنسان بحاجة مستمرة لدفع الشرور والآفات عن نفسه.. وما أكثرها في هذه المخلوقات، في الجن والإنس، والأرض والسماء، وفي الهواء والماء، وفي مختلف الأشياء. وهو في نفسه غير قادر على ذلك، فيحتاج إلى اللجوء إلى ركن وثيق يحميه من هذه الشرور.. وليس ثمة أقدر، ولا أبصر، ولا أحكم، ولا أعلم، من الرب الخالق، والخبير البصير، الذي وسع كرسيه السماوات والأرض، ولا يؤوده حفظهما، وهو العلي العظيم..

قل.. خطاب لمن؟!:

وبعدما تقدم نقول:

إن الخطاب بكلمة «قل» في القرآن الكريم يأتي على نحوين:

الأول: أن يكون خطاباً لرسول الله «صلى الله عليه وآله»، بحيث لا

---

(١) الآية ٧٣ من سورة الحج.

(٢) الآية ٢٥٨ من سورة البقرة.

يشاركه في الخطاب غيره..

كما في قوله: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾(٢).

وقوله: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾(٣).

فإن المشركين يدَّعون أن الرسول لا يمكن أن يكون بشراً، بل لا بد أن يكون ملكاً. فهم يقولون للنبي «صلى الله عليه وآله»: «أنت بشر، إذن فأنت لست برسول»..

فجاءهم الجواب من الله تعالى ليقول: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾(٤). إذ لا يصح أن يكون الرسول للبشر من غير البشر..

الثاني: قد يكون الخطاب في كلمة «قل» على قاعدة: «إياك أعني، واسمعي يا جارة».

فمثلاً: إذا كنا نرى أنه تعالى يصرح: بأنه ليس للشيطان ﴿سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾(٥). وقال إبليس: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ

---

(١) الآية ٩ من سورة الأحقاف.

(٢) الآية ١١٠ من سورة الكهف.

(٣) الآية ٩٣ من سورة الإسراء.

(٤) الآية ٩ من سورة الأنعام.

(٥) الآية ٩٩ من سورة النحل.

﴿أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾(١).

فإننا نعلم: أن نبينا الأعظم «صلى الله عليه وآله» مصون من كيد الشيطان، ولا سبيل للشيطان عليه. فإذا قرأنا في سورة الناس قوله تعالى: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ**﴾(٢).

فإننا ندرك أن الأمر بالتعوذ من الشيطان كان موجهاً لمن يمكن للشيطان أن يغويهم، وله سبيل عليهم، ومن يقعون في حبائله، وليس موجهاً له «صلى الله عليه وآله»، وإنما يأمره الله بالتعوذ على قاعدة: إياك أعني واسمعي يا جارة.

نقول هذا مع علمنا بأنه «صلى الله عليه وآله» لا يتعامل مع نفسه من منطلق تحقق معنى العصمة فيه، ولا يرى أن له «صلى الله عليه وآله» أي قوة أو حول من دون الله سبحانه، بل يرى أنه بحاجة مستمرة إلى المعونة الربانية، والألطاف الإلهية، فهو «صلى الله عليه وآله» يطلب من الله تعالى هذه المعونة طلب راغب، ويسعى إليه بكل ما لديه من قوة وحول سعي دائب..

وهذا الطلب والسعي الحثيث، المنطلق من هذا الشعور بالحاجة إلى الله سبحانه، وأنه هو المنقذ والمعين والحامي، والراعي، والحافظ، والحصن المنيع، والكهف، والملاذ.. إن هذا الشعور يؤدي إلى الإلحاح في طلب المعونة، والنصر في مختلف الميادين، وهو من موجبات نيل المثوبات، وزيادة العطايا والألطاف الإلهية الغامرة، ومن أسباب نيل مقامات القرب والزلفى لديه سبحانه..

---

(١) الآيتان ٣٩ و٤٠ من سورة الحجر.

(٢) الآيات ١ ـ ٤ من سورة الناس.

وعليه، فلا مانع من أن يرى النبي «صلَّى الله عليه وآله» نفسه مشمولاً للأمر بالتعوذ ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾[١]، و ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾[٢].. مع علم الله تعالى بعصمته منه، وهي عصمة يختارها النبي «صلَّى الله عليه وآله»، ويبادر إليها.

﴿أعوذ﴾:

أما التعوذ الذي أمر الله تعالى به، فنوضح المراد منه كما يلي:

يقال: عاذ بفلان.. ويقال: لاذ بفلان، فكلمة عاذ ولاذ متقاربتان في لفظهما، لأن التفاوت بينهما في حرف واحد.. لكن هناك فرق بينهما في المعنى، فإن كلمة «لاذ به» تعني أنه أخفى نفسه تحت جناحه مثلاً، أو اختبأ خلفه، أو احتمى به، وأخفى نفسه عما وعمَّن يحاذر أن يصل إليه، وينال منه مكروهاً.

وأما العوذ فهو الطلب من المستعاذ به أن يتولى هو دفع السوء عن المستعيذ، بالاستفادة مما لديه من قدرات ووسائل..

فظهر: أن من تلوذ به قد لا تكون لديه قدرات تمكنه من مواجهة مصدر الخطر، وإنما هو يملك خصوصية القدرة على الإخفاء والمنع، تماماً كما لو لاذ خائف بحائط، أو بسطح بيت..

أما من يستعاذ به، فلديه القدرات الكفيلة بدفع الخطر، والبطش بمصدره،

---

(١) الآية ٢ من سورة الفلق.

(٢) الآيتان ٤ و ٥ من سورة الناس.

وتقويض قدراته، وتحطيم شروره.

ومعنى هذا: أن من تستعيذ به، لا بد أن يوافقك، ويشاركك الرأي في ضرورة دفع الخطر الداهم، ولأجل ذلك لا يستعيذ أحد بعدوِّه، ليتخلص من شر عدو آخر.

كما أنك لا تستعيذ بمن لا يهتم لك، ولا يبالي بك، وبما يجري عليك، ولا يحمل أية عاطفة تجاهك، ولا يربطه بك رابط مهما كان، فإن أنت التجأت إليه، واستعذت به يقول لك: من أنت؟! أنا لا أعرفك، ولم أرك فلماذا أعينك؟! ولماذا أدفع عنك؟!

كما أنك لا تستعيذ بالضعيف، والفاقد لمقومات نصرتك والدفع عنك.

بل تستعيذ بالقوي، والقادر، والعالم، والبصير، والخبير، ومن لديه نظرة إيجابية لك، ولك به علاقة، ولك معه محبة ومودة..

فالاستعاذة سببها الضعف والحاجة، وهي تحتم إقامة علاقة محبة ومودة، وصلة حميمة مع من تريد أن تستعيذ به، وهو هنا رب الفلق تبارك وتعالى.

فمن يعصي ربه في كل يوم، ولا يبالي برضاه، كيف يتوقع من الله عونه ونصرته، ودفع الشرور عنه.

وبذلك يتضح: أن قوله تعالى: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ**﴾ تستبطن دعوة الإنسان إلى إقامة هذه العلاقة الرضية معه تعالى، والابتعاد عن مواقع غضبه، وأن يخرج من دائرة الانغماس في الشهوات، التي تؤدي به إلى عدم المبالاة والتجاهل للعلاقة الصحيحة معه تعالى إلا حين يتعرض لخطر جسيم.

الاستعاذة بالله أو بالرب:

ويؤكد ما ذكرناه آنفاً أنه تعالى لم يقل: قل أعوذ بالله.. أو بإله الفلق، بل قال: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ**﴾ والربوبية تعني الرعاية الهادفة إلى إيصال المرعي إلى كمالاته.. فالربوبية لديها مشروع تكاملي تربوي، يهدف إلى السمو والرقي، والتنامي، والانتقال بالمربوب من مرحلة أدنى إلى مرحلة أرقى..

والربوبية تستبطن محبة واهتمام المربي لمن يتكفل بتربيته، وتستبطن أيضاً الاهتمام والرغبة، ونقل المربوب من حسن إلى أحسن، من خلال معرفة ما يحتاجه، وما يصلحه، وما هو خير له، وإبعاد ما فيه هلاك وشر، وأن لا يلحق به أي وهن أو ضعف، أو اختلال..

برب الفلق:

وإنما ذكر الاستعاذة برب الفلق، لأن الفلق معناه الشق. فهو تعالى: ﴿**فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى**﴾[1]. أي هو الذي يشقه، ليتحول إلى حالة أرقى من الحالة التي كان عليها..

وإنما يشقه الله تعالى ويفلقه ويخرجه من حيز العدم من موقع ربوبيته، التي تعني نقله من مرحلة أدنى إلى مرحلة أعلى وأرقى، وأهم، وأكثر قرباً من مرحلة الكمال. فالشق من مراحل التأهيل والإعداد، والاقتراب أكثر من الأهداف العليا لهذا الخلق، وهو الكمال والخلوص التام من جميع الشوائب.

فيتبين بعدما تقدم: أن الاستعاذة برب الفلق، ليست مجرد استجابة

---

(١) الآية ٩٥ من سورة الأنعام.

لعامل الخوف والضعف، بل هي لوضع الإنسان على صراط تصحيح العلاقة بالله، وتقويم النظرة إليه، وكيفية التعامل والاستفادة من رعايته، ونعمه، على النحو الذي يرضيه..

كما أنها تفرض على الإنسان أن يفكر في معنى الربوبية، وفي سُنَّة الخلق والتكوين حتى في بداياته، أي من حين بدء الشق والفلق توطئة للخلق.. بمعنى النقل من مرحلة إلى أخرى في مسيرة الكمال.

مما سبق:

تقدم: أن الله تعالى يدبر مخلوقاته من موقع ربوبيته، التي تعني:

١ ـ إنه يريده أن يكون في غاية الإتقان، وفي أحسن تقويم، وفي منتهى السعادة، وفي تنامٍ وتسامٍ مستمر.

٢ ـ إنه يدبره من موقع حبه وتوخي الخير والسعادة له، وإيصاله إلى الكمال ونيل درجات القرب والزلفى، وصونه من أي سوء أو نقص، أو اختلال.

٣ ـ إن نفس شق حيز العدم هو رحمة إلهية، وتفضل رباني، فما بالك بالنعم والتفضلات، والألطاف التي لا حصر لها، والتي يسبغها سبحانه على مخلوقاته سبحانه لحظة بلحظة في مراحل نموها وتكاملها.

٤ ـ تقدم: أن علاقتك بهذا الرب الذي تريد منه أن يعينك، وينمِّيك ويحميك، ويربيك، ويدفع عنك الأسواء والشرور، يجب أن تكون إيجابية، وحميمية، ولذا قال تعالى: ﴿**يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لله**﴾[1].

---

(١) الآية ١٦٥ من سورة البقرة.

وقال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾(١).

وهذه هي العلاقة الطبيعية بين المخلوق وخالقه.

٥ ـ إنه تعالى يتعامل مع مخلوقاته من موقع الرحمة، والكرم، وحب الخير لهم، والحفظ، والسعي لإيصالهم إلى أقصى غايات الكمال والفوز والسعادة.

٦ ـ ويتعامل معهم من موقع الحكمة، والعلم، والبصيرة، والاحاطة، والوقوف على الغيوب، والاطلاع على الضمائر، وما تخفيه السرائر.

أعوذ بالرحمان منك:

وقد رأينا في هذه السورة: أنه تعالى يأمر بالاستعاذة بالرب، بما هو خالق وفالق، فيقول: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾.

ويأمر في السورة التالية بالاستعاذة بالرب، بما هو مرب ومدبر، ومالك وإله، يريد صون عباده من شرور الإنس والجن، ما خفى منها وما ظهر.

ولكننا نجد: أن مريم «عليها السلام» قد استعاذت به تعالى، بما هو رحمان، قال تعالى: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾(٢).

فمريم «عليها السلام» لم تقل: أعوذ بربي أو بربك، أو بالله منك.. بل قالت: ﴿أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾

ولعل السبب في ذلك: أن مريم «عليها السلام» حين رأت مخلوقاً في

---

(١) الآية ٣١ من سورة آل عمران.

(٢) الآيتان ١٧ و١٨ من سورة مريم.

صورة بشر.. وأدركت أن وجوده في ذلك المكان بصورة مفاجئة، حيث لم يكن في ذلك المحيط أحد للحظات خلت، عرفت أن في الأمر سراً، وأن الأمر يدعو للحيطة والحذر.

ولعل هذا هو أحد أسباب استعاذتها منه بالرحمان، للأسباب التالية:

١ ـ أرادت أن تذكره بالرحمة الإلهية، وتغريه بالاستفادة منها.

٢ ـ إن كانت لديه نوايا سيئة، فإنها تطمعه بالتوبة، وتشير إليه بأن بابها مفتوح ومَظَنَّة قبولها من خلال الرحمانية الإلهية.

٣ ـ إنها باستعاذتها هذه تجعل ذلك الموجود الذي لا تعرف عنه شيئاً تحت وطأة الشعور بالذنب.

الرحمة الإلهية لا تعني الاتكالية:

وقد يتخيل البعض: أن الرحمة الربانية الشاملة، المستندة إلى العلم، والقدرة، وسائر صفات الألوهية، والربوبية لا تعني حتمية التدخل الإلهي في كل شيء. إذ مع حتمية هذا التدخل لم يكن هناك حاجة، لا للاستعاذة ولا إلى الدعاء، ولا إلى التوبة، ولا إلى أي شيء آخر، فإن المفروض: أن الرحمة الربانية، تدعو إلى التدخل الإلهي لحماية، وحفظ، وصون، ودفع الشرور عن كل من يحتاج إلى ذلك، وتدعو أيضاً إلى معونة كل عاجز، ورفع حاجة كل محتاج، ورعاية كل من يحتاج إلى رعاية. بل هي تفرض أن تنقل الإنسان إلى أعلى درجات الكمال والسعادة..

هذا بالإضافة إلى شفاء كل مريض، وإبلاغ كل ذي هدف إلى هدفه،

وما إلى ذلك..

فهل يعقل أن يتوهم عاقل: أنه ليس على الإنسان أن يفعل شيئاً، فهو يتكامل وينمو، ويصل إلى كل ما يريد، وهو نائم على فراشه، ولا يحتاج إلى التفكير في شيء، ولا إلى السعي والعمل، وبذل الجهد في طلب الكمالات.. ولا يحتاج إلى الدفع عن نفسه، ولا إلى طبيب، ولا إلى أي شيء آخر، بدعوى أن الله سبحانه يتولى ذلك عنه؟!

وبعدما تقدم نقول:

إن لهذه النظرة غير السليمة سلبيات وارتدادات مؤذية، فعدا عن أنها توجب حرمان الإنسان من المثوبات، وتدعوه إلى التقصير في الواجبات، وأن ينصرف لطلب الملذات، ولو بارتكاب المعاصي والموبقات.

ومن الواضح: أن هذا يوجب الإخلال في الحياة كلها، وتضييع بهجتها، وإفراغها من محتواها.. ويجعل الناس يعيشون في خواء، ويتحركون في الهواء، وينشدون أحلامهم، وآمالهم وطموحاتهم في هباء وفناء.

وهكذا تضمر الحياة وتتلاشى، وتموت، وتندثر، ولا يبقى لها أي أثر، وكأن أهلها ﴿**أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ**﴾[1].

إذن، فلكي يبقى لدى الإنسان طموح، يدعوه إلى الكد والجد، والتعب والنصب، وإلى الوعي التام، والتفكير الجاد في الواقع الذي يعيش فيه، والأحوال التي تحيط به، ولكي يبذل الجهد في فهم مشكلاته، وحل

---

(١) الآية ٢٠ من سورة القمر.

معضلاته، والتماس السبل لإبعاد الأسواء والشرور، ويخرج من دائرة الخمول والكسل، ولينيله الله تعالى ثواب ذلك ـ نعم ـ من أجل ذلك كله، جاء الأمر بالدعاء، والاستعاذة برب الفلق، وبرب الناس، والاستعانة به، والسعي للكون في موقع رضاه، كما أشير إليه في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(١).

وهذا يدلنا أيضاً على بعض الحِكَم والفوائد الجليلة والجميلة التي نستفيدها من جعل الإنسان عاقلاً مختاراً مفكراً، مبادراً طموحاً فاعلاً، مسؤولاً محاسباً، بحيث لو فقدت هذه العناصر، أو بعضها فإنه يفقد معنى إنسانيته ومبرر وجوده. ولا بد أن يتواصل ضعفه وسقوطه ليصل إلى حد التلاشي والاندثار.

صفات الله في مرآة الاستعاذة:

١ ـ ويحق لنا أن نقول: إن الإستعاذة برب الفلق، من شر ما خلق.. تتضمن إلماحة إلى صفات الله تعالى، أعني صفات الذات وصفات الفعل على حد سواء..

ويمكن أن يكون السؤال التالي: هل للفلق رب؟! وما معنى الفلق؟! وإذا كان للفلق رب؟ فماذا يعنيني منه لاستعيذ برب الفلق؟!

نعم، يمكن أن يكون هذا السؤال، أو الأسئلة بالذات، هو المنطلق لهذه الإلماحة..

ونوضح ذلك كما يلي:

---

(١) الآية ٥ من سورة الفاتحة.

إننا إذ نؤكد على أن للفلق رباً، نقول:

ذكر للفلق معان، يمكن أن يقال: إنها تؤول إلى معنى الشق، كما في قوله: ﴿**فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى**﴾(١). كما تقدم.

ومن المعلوم: أن الشق لا يستلزم الفصل التام، إذ يكفي جعل الشيء شقين، وإن بقي الاتصال بينهما قائماً، فالشق ليس فصلاً تاماً، بحيث يكون كل شق مستقلاً عن الآخر..

وكأن هذا الشق والفلق كما أشرنا إليه يراد به طريقة حصول النشآت المتلاحقة للمخلوقات البشرية وغيرها.. لكي تمنحها التنامي في المراتب، والاقتراب من الكمال الذي هو الغاية والنهاية. بصورة تدريجية ومتأنية، وطبيعية.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى عن الأرض: ﴿**فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**﴾(٢).

فقوله ﴿**اهْتَزَّتْ**﴾ يشير إلى مرحلة، وقوله ﴿**وَرَبَتْ**﴾ يشير إلى مرحلة ثانية، وقوله: ﴿**وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**﴾ يشير إلى مرحلة ثالثة.

فإن الحصول على الثمار يحتاج إلى عدة مراحل، كلها يحصل فيه الشق والانتقال من مرحلة إلى أخرى.

وأما بالنسبة للنشوء البشري، فقد أشارت الآيات الكريمات إلى عدة مراحل، فلاحظ قوله تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا**

---

(١) الآية ٩٥ من سورة الأنعام.

(٢) الآية ٥ من سورة الحج.

﴿خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾(١).

ويتواصل التنامي والتكامل البشري بعد ذلك حتى يبلغ أرقى الدرجات، فلا يتوقف عند أهل الفكر وجهابذة العلم، بل يتجاوز ذلك ليبلغ درجات النبوة والرسولية، التي يكون نبينا، وأوصياؤه هم القمة فيها.

وهكذا يقال بالنسبة للمخلوقات الأخرى، فإنها تخرج من طور إلى طور بصورة متنامية، ساعية إلى كمالاتها، مستمدة العون والهداية، من بارئها، فيعطيها الله بحسب استعدادتها، وقابلياتها، ما يجعلها ركيزة انطلاق إلى مرحلة أكمل وأرقى، وأمثل، وأفضل، وأبقى، حيث إن لكل مرتبة خصوصيات وميزات إنما تظهر بعد الوصول إليها من خلال التربية والرعاية الإلهية لها.

وهذا ما أشير إليه في قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾(٢). فإنه يجب حتى على النبي وأوصيائه أن يطلب هذه الهداية، لأن ثمة مراتب يحتاج الوصول إليها إلى سعي وجهد، وإلى وسائل تناسبها، وتحتاج إلى التعرف على هذه الوسائل.. ولأجل ذلك يقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، لأنه لا يصل إلى تلك المراتب لمجرد أنه نبي مثلاً. بل بسبب سعيه وجهده.

---

(١) الآية ٥ من سورة الحج.

(٢) الآية ٦ من سورة الفاتحة.

٢ ـ وإذا نظرنا إلى هذه الآية في هذه السورة من زاوية أخرى، فيمكن أن نبيِّن ما نرمي إليه على النحو التالي:

ألف: إن الفلق الذي يعني شق جدار العدم، وإفاضة الوجود على الشيء أو الأشياء هو محض تفضل إلهي، وكرم رباني، فالله تعالى كريم جواد، محيط بكل شيء.

ب: الفلق دليل عملي على القدرة الإلهية التي لا تتناهى.

ج: هو على ما هو عليه من إتقان، لا يبارى ولا يجارى، دليل حكمة وتدبير.

د: وهو دليل علمه تعالى بدقائق الأمور، وتفاصيل هذا الوجود، وما له من خصوصيات وأحوال..

هـ: واستمرار الفيض الإلهي دليل على أنه تعالى قيوم.

و: كما أنه تعالى حين يشفي المريض، ويعطي المحتاج، ويغيث الملهوف، ويؤمن الخائف، ويحي ويميت، ويرزق، ويرحم، ويرعى.. إلى غير ذلك من حاجات، فإنما يدل بذلك على آثار صفات الفعل لله تعالى من موقع ربوبيته.

بين الحقائق والأوهام:

وقد قال تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً**﴾(١).

ومما يساعد على تصور المراد بهذه الآية إدراك حقيقة أن الإنسان يسعى إلى كماله، ولكنه قد يخطئ في تحديد ما يكون به كماله. بسبب تسويل نفسه

---

(١) الآيتان ١٠٣ و ١٠٤ من سورة الكهف.

وخداعها لـه، فيحسب مـا يضره نافعاً له، وما يفسد حياته ومستقبله يظنه مصلحاً لها وله..

وربما توهم: أن كماله ورفع نقصه يكون بالحصول على شهواته، فشهواته هي أقصى غاياته، ومنتهى طموحه، فيسعى إلى الاستزادة من الأموال، والاستفادة من لذائذ الطعام، والإفراط في ممارسة الجنس، ولـو في نطاقه المحرم، أو في نيل المقامات في الدنيا، والحصول على الوجاهات فيها، أو في الهيمنة على الآخرين، من خلال توظيف فائض القوة لديه في ظلم الناس، وقهرهم، وغير ذلك. فيقع في الأخطاء الفاحشة، ويرتكب الموبقات والمآثم، ويكون مفسداً في الأرض ساعياً في إهلاك الحرث والنسل، وتعم شروره، ويزداد غروره، ويكون وجوده محض بلاء على الناس.

ويحتاج الناس إلى دفع شره، والتخلص من ضره، فإن وجدوا في أنفسهم عجزاً، أو ضعفاً، فإنهم يلجأون إلى القادر على ذلك، ويعوذون به.

وقد تجد طائفة من هذا النوع من المفسدين، الذين يرهقون الناس بشرورهم، غافلين عن أن مـا يفعلونه هو مـن الشرور، والخطايا، بل يرون أن أعمالهم هذه هي محض الخير، وعين الحق والصواب. ولذلك قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا**﴾.

ومن الواضح: أن نفس إيجاد الأشياء من العدم، أو إبداع صورتها على غير مثال سابق هو خير محض، وتفضل من الله، لأنه تعالى لا يمكن أن يبتدئ بخلق ما هو شر وضر. بل هو يوجد الأشياء لتكون من وسائل الكمال، ويبث فيها ما يمكِّنها من التطور والانتقال إلى مراتب أعلى.

فإذا وضعت هذه الأدوات في نطاق اختيار الإنسان، فيفترض فيه أن يوظفها في الغايات الفضلى التي بررت إيجادها.

فمثلاً: أعطى الله للإنسان يداً ورجلاً، وعيناً، وقوة بدنية، وطاقة جنسية، وحب الحياة، وحب التملك.. و.. و.. لكي يستفيد منها في جلب المنافع ودفع المضار، وتكون عوناً له على مواصلة مسيرته التكاملية، ولكنه يستعمل لسانه في الأذى والغيبة، والفتنة والكذب بدلاً من استعماله في التسبيح والاستغفار، وقراءة القرآن، وهداية الناس ونصيحتهم.

كما أنه بدل أن يستعمل يده في الصدقة، ومعونة المحتاج، والجهاد، وتحصيل الرزق الحلال، و.. و.. يستعملها في العدوان والظلم، والسرقة، وسلب الحقوق، وما إلى ذلك.

فكل ذلك يدلنا على أن السر ليس في نفس المخلوق، وإنما هو من استعمال هذه الأدوات في غير السبيل الذي خلقت من أجله، وكذلك الحال بالنسبة لسائر جوارحه. فإن استعمالها بصورة خاطئة وفي غير الموارد التي رخَّص الله باستعمالها فيها هو الشر بعينه، وليس نفس الجوارح هي الشر، بل أعمالها تكون شراً تارة، وتكون خيراً أخرى.

الكمالات في الحقائق والأشكال:

والكمالات قد تكون كامنة في نفس الحقائق، وقد تكون في الصور والأشكال، فقد يرى أن كماله في بقائه حياً، أو في ماله، أو في جاهه ونفوذ كلمته، وسلامة أعضائه، فإذا فقد شيئاً منها، فيطلب من الله أن يعيذه من

عروض هذا النقص له.

ما المراد بالخلق؟!:

وقد تحدثت الآية المباركة عن الخلق، وذكرت شرورهم، وأمرت بالتعوذ بالله منها، فما هو المقصود بالخلق بمعناه المصدري يا ترى؟!

قد يقال: المراد بالخلق أحد أمور:

أولها: الابداع والايجاد على غير مثال سابق.

الثاني: أن يراد به التصوير، وإعطاء الشكل للمادة. قال تعالى: ﴿**مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ**﴾(١). فالتخليق هو إيجاد الإشكال في المضغة.

الثالث: الإنتقال من طور إلى آخر، ومن مرحلة إلى أخرى، كما قال تعالى: ﴿**ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ**﴾(٢).

على أن من الجائز الجمع بين هذه المعاني في معنى عام شامل لها، بأن يقال: إنما سمي الخلق خلقاً لدلالته على حصول ما لم يكن، حين يكون نتيجة تصرف عن إرادة واختيار.

وهذا المعنى يشمل المعاني الثلاثة المتقدمة، فإن إعطاء الصورة للمادة مثلاً، هو خلق وإبداع إلهي لإظهار بواطن حالاتها، ولتتجلى خصائصها الكامنة فيها، وقد أوجدها على غير مثال سابق.

---

(١) الآية ٥ من سورة الحج.

(٢) الآية ١٤ من سورة المؤمنون.

كما أن النقل من طور إلى آخر هو إيجاد وإبداع لخلق جديد.

ولأجل ذلك صار الإنسان بهذه الصورة الإبداعية. وبهذا التطور التكاملي الصاعد في أحسن تقويم: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾(١). وقال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾(٢).

أي أنه أعطاه الصورة التي لا بديل عنها، وهي الأحسن والأجدر، ولأنها على غير مثال سابق كانت إبداعاً.

وصار ينقله في مراتب الكمال من مرتبة إلى أخرى أرقى منها. وهذا يتضمن معنى الإبداع أيضاً.

---

(١) الآية ٤ من سورة التين.

(٢) الآية ٧ من سورة السجدة.

الفصل الرابع :

مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ..

التعوذ من الشرور:

إن الله تعالى قال: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾، ولم يقل: مما خلق، وقال: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾، ولم يقل: من غاسق. وقال: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾، ولم يقل: من النفاثات في العقد، وقال: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾، ولم يقل: من حاسد إذا حسد.. فنراه:

أولاً: قد تعوذ من شر هذا، وذاك وذلك الخ..

ولم يتعوذ من نفس الغاسق، والنفاثة، والحاسد في حين أن مريم تعوذت من نفس الشخص الذي رأته، فقالت: «منك».

ونجيب:

بأن مريم لم تكن ترغب في رؤيته، ولا في أن يراها شخص أجنبي عنها في أي حال، رعاية للصون والعفة.

وسيأتي الحديث عن هذا الأمر، ولكن عامة الناس قد لا يكون لديهم محذور في أن يروا، أو أن تراهم، أو تقترب منهم أكثر المخلوقات، إلا تلك التي يخافون من شرورها.. فإذا تعوذوا، فإنما يتعوذون من شر تلك المخلوقات. وهذا هو المراد هنا.

ثانياً: إنه كرر كلمة شر في الآيات الأربع كلها، مع أنه كان يمكن أن

يذكر هذه الكلمة في الآية الأولى، ثم يعطف الغاسق، والنفاثات، والحاسد على كلمة ﴿مَا خَلَقَ﴾. فيقول: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾، ومن الغاسق، والنفاثات، والحاسد.

ثالثاً: إنه تعالى قال: ﴿مَا خَلَقَ﴾، ولم يقل: من خلق.

ونجيب:

أولاً: بالنسبة للسؤال الثالث عن كلمة «ما» نقول:

إن كلمة «ما» تستعمل لغير العاقل، و «من» للعاقل..

والمناسب هنا: استعمال كلمة «ما» تغليباً، لأن أنواع غير العقلاء التي تكون منها الشرور كثيرة.. ولا مانع من شمول الكلام للعقلاء من الجن والإنس على سبيل التغليب.

يضاف إلى ذلك: أن تنصيصه في الآيات الثلاثة الأخيرة على شرور طوائف من العقلاء يعطي: أن المطلوب هو الاستعاذة من جميع الشرور، أياً كان مصدرها.

ثانياً: إن تكرار كلمة «شر» هو الصحيح، الذي يؤدي المعنى الذي يراد الإفصاح عنه في هذه الآيات، وذلك لأن الشرور التي يريد أن يستعيذ منها مختلفة، بحسب اختلاف الموارد، فإن شرور الحاسد إذا حسد تختلف عن شر الغاسق وعن شر النفاثات..

فمثلاً: هناك شرور للحاسد مثلاً ترتبط بالجنس، أو بالكذب، أو السرقة، وهي ليست بسبب حسده، وهناك شرور تصدر عنه من حيث هو حاسد. وهكذا يقال بالنسبة للغاسق، أو النفاثات في العقد، وهذا يدل على أن تكرار كلمة شر لا غنى عنها.

هل هذا تكرار؟!:

هنا سؤالان:

أولهما: قد يروق للبعض أن يسأل، ويقول: ألم يكن يغني قوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ عن ذكر الآيات التي بعدها، فإن الغاسق إذا وقب مشمول لقوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾. كما أن النفاثات في العقد مخلوقات له تعالى، والحاسد أيضاً كذلك؟!

الثاني: لماذا اقتصر على ذكر هذه الأمور الثلاثة ولم يذكر سائر المخلوقات، التي تصدر عنها شرور، سواء أكانت من البشر، مثل النمام، والكذاب، والساعي في الفتن، والظالم، وغير ذلك. أو كانت من غير البشر، مثل شرور فسقة الجن، وشرور بعض الحيوانات والطيور والحيات والعقارب وما إلى ذلك؟!

ونجيب بما يلي:

أولاً: إن من الأمور المعروفة عطف الخاص على العام للتأكيد على لزوم الالتفات إليه، ومراعاة حاله بخصوصه.

ثانياً: إن التنصيص على أمور بعينها، لعله لأجل خصوصية فيها لا توجد في غيرها مما شمله العام.

ولتوضيح ذلك نقول:

لاحظ ما نذكره ضمن العناوين التالية:

المراد من الغاسق:

١ ـ إن الغسق هو نصف الليل، حيث يشتد الظلام، كما أشير إليه في قوله

تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾[١]، فقد حددت هذه الآية أوقات الصلاة اليومية الواجبة، وحصرتها بثلاثة أوقات:

الوقت الأول: دلوك الشمس، وهو أن تتجاوز نقطة نصف النهار وتميل عنها إلى الجهة الأخرى، وهو ما يعبر عنه بالظهر. وتجب في هذا الوقت صلاة الظهر، ثم صلاة العصر، ويمتد وقت الظهر إلى ما قبل غروب الشمس بما يسعها ويسع صلاة العصر، فإذا أتى بها، فإنه يبقى الوقت الخاص بالعصر، فلو أدرك من وقتها ركعة واحدة، ثم أتمها، فإنها تكون، أو فقل: تحسب له أداء لا قضاء.

الوقت الثاني: ويمتد من أول المغرب إلى ما قبل نصف الليل، بمقدار أربع ركعات، تكون لصلاة العشاء، وينتهي وقت صلاة المغرب إلى ما قبل الوقت الأخير الخاص بصلاة العشاء. فلا تصح صلاة المغرب أداء في الوقت المختص بصلاة العشاء.

الوقت الثالث: هو وقت صلاة الصبح. وهو من أول الفجر الصادق إلى طلوع الشمس.

٢ ـ فالغاسق هو الذي يجعل غسق الليل ستاراً له، ليتمكن من الحصول على مطلوبه.

٣ ـ إن هذا الغاسق قد يكون طالباً للمال، وقاصداً للقتل، أو راغباً في هتك العرض، أو يكون هدفه التجسس، أو أي غرض آخر.

---

(١) الآية ٧٨ من سورة الإسراء.

٤ ـ إن الغاسق قد يكون من البشر، وقد يكون من غيرهم، كالزواحف، والحيات، والعقارب، أو الحيوانات المفترسة، والمؤذية، التي تعبث بالمقتنيات، فتفسدها، أو تترك وراءها بعض ما يربك حياة الناس، وما إلى ذلك.

وقد يكون الليل هو الوقت المفضل حتى لأكثر الزواحف والحيوانات على أنواعها حيث لا تسمع ولا ترى الكثير مما تخافه وتخشاه.

التخصيص بعد التعميم:

وللتخصيص بعد التعميم فوائد وعوائد متنوعة، مثل الإشعار بمزيد من الاهتمام بالخاص، والإلفات إلى بعض الخصوصيات فيه..

ونضيف إلى ذلك هنا: أن الحديث عن شر ما خلق قد يفهم منه أن المراد هو هذه الشرور المعهودة الظاهرة التي تتبادر إلى الأذهان لدى عامة الناس، وقد نرى آثارها في أكثر الأحيان.. مع أن هناك شروراً خفية أخطر منها وأشد فتكاً، وقد لا تخطر لنا على بال..

والمقصود هنا: هو الإشارة إلى هذا النوع من الشرور الخفية.

وقد ذكر تعالى منها هنا ثلاث مراتب، كل واحدة أخطر من سابقتها، وتكمن درجة خطورتها في درجة خفائها، وصعوبة اكتشافها، لأن الأمر كلما زاد خفاءً زاد اكتشافه صعوبة، إذ إن خفاءه يمنع من إدراكه، ومن التحرز منه، أو الاستعداد له، وتهيئة وسائل دفعه.

مرحلة الخفاء الأولى:

ونبين درجات الخفاء بحسب الآيات الثلاث التي توزع الحديث عنها

في هذا الفصل، وفي الذي يليه على النحو التالي:

الدرجة الأولى: هي الدرجة الدنيا من الخفاء، وهي التي أشير إليها في الآية الثالثة من سورة الفلق، حيث قال تعالى: ﴿**وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ**﴾ فإن الظلام الدامس يعطي درجة قوية من الخفاء لمن يريد التستر به.. ولكنه خفاء يمكن إجهاضه بأدوات ووسائل أخرى.. لأن الظلام وإن كان يعطل حاسة البصر عن العمل، ولكن سائر الجوارح تبقى فعالة، ويمكن اكتشاف الغاسق بها، ومن خلالها.

فالسامعة مثلاً يمكن أن تكشف الغاسق إذا أحدث أصواتاً بسبب سعاله، أو لهاثه العالي، أو بسبب تعثره ببعض الأجسام الصلبة.

ويمكن اكتشاف الغاسق باللمس في بعض الأحيان..

ويمكن اكتشافه أيضاً بالشم، إذا كان قريباً، وكانت تصدر عنه روائح طيبة بسبب استعماله العطور، أو كريهة بسبب بُخر الفم، أو بأي سبب آخر.

ويمكن اكتشافه بالإنارة المفاجئة أيضاً.

فخفاء الغاسق محدود، ويمكن رصده، والإيقاع به ببعض الأساليب والاحتياطات التي يعتمدها الإنسان لحماية نفسه.

فيكون سبحانه قد ترقى من الشر الظاهر الذي يتبادر إلى الأذهان بسهولة المشار إليه في قوله: ﴿**مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ**﴾ إلى الشر الخفي، وفي قوله: ﴿**وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ**﴾.

ب: ولكن هذا المقدار من الخفاء، هو الذي يتبادر إلى الأذهان حين يذكر الغاسق، ويتذكر الناس شروره، وليس هذا هو السبب في تخصيصه بالذكر،

لأنه داخل في قوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾.

ولأجل ذلك ألحقه بقيد آخر يؤكد توغله في الخفاء، فقال: ﴿إِذَا وَقَبَ﴾، وذلك لما يلي:

إن الحديث عن الغاسق يأتي على نحوين:

أحدهما: أن يتوغل الغاسق ويصل إلى موقع الخطر الأقصى، كما لو دخل إلى غرفة النوم مثلاً.

الثاني: أن يصل إلى مشارف المنطقة المحرمة القصوى، دون أن يدخلها مع وجود حالة الشك في أن يواصل طريقه، أو ينصرف..

فذكرت الآية الشريفة: أنها تتحدث عن غاسق دخل فعلاً إلى موقع الخطر الأقصى. ولذا قال: ﴿وَقَبَ﴾.

وذكرت أيضاً: قيام حالة اليقين بالوصول إلى هذا الحد، بدليل استفادة الآية من كلمة ﴿إِذَا﴾ التي تستعمل في خصوص حالة اليقين بحصول مدخولها، وحتمية ترتب آثار هذا الحصول..

ولو أنه استعمل كلمة «إن» وقال: «إن وقب» لما أمكن استفادة حتمية إقدامه على الدخول إلى منطقة الخطر الأقصى، بل كان ذلك مشكوكاً. والشك المشار إليه يدل على عدم لزوم التعوذ من شر هذا الغاسق، حيث لا يعلم أنه سيدخل إلى موضع الخطر الأقصى، أو ينصرف عنه. فالآية تتحدث عن شر متيقن الحصول، وضرورة الاستعاذة منه.

فإنك إن قلت: إن جاءك زيد، فاعطه المفتاح. فهو لا يدل على حتمية مجيئه، فقد يأتي وقد لا يأتي..

وإن قلت: إذا جاءك زيد فاعطه المفتاح، فهو يدل على حتمية مجيئه، ولزوم إعطائه المفتاح.

ومن الواضح: أن الغاسق إذا وقب يتضاعف خطره، لأنه يرى نفسه في خطر شديد وأكيد، فلا بد له من أمرين:

أولهما: أن يقاتل ليحصل على ما جاء من أجله.

الثاني: أن توغله يفرض عليه أن يكون هو المبادر للبطش بمن يصادفه، وأن يكون ذلك بأقصى سرعة، ولو بمجرد أن يرفَّ جفنه، أو تتحرك يده أو رجله، أو ما إلى ذلك. لأن عليه أن يدفع عن نفسه أي خطر، مهما كان احتماله ضئيلاً وهزيلاً. فالشر يصبح حتمي الحصول حين يصل الغاسق إلى هذا الحد.

التعوذ من شر الغاسق:

وقد رأينا: أن هذه الآية تأمر بالتعوذ من شر الغاسق، لكن مريم «عليها السلام» قد تعوذت من نفس الذي تمثل لها بشراً سوياً، قالت: ﴿**إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا**﴾(١). ولم تقل: أعوذ بالرحمن من شَرِّك.

كما أنها عاذت بالرحمان، ولم تقل: بالله، أو بالمنتقم الجبار، أو غير ذلك. ربما لأجل تسهيل التوبة عليه، إن كان ينوي الإساءة لها. كما أن بعض الآيات تأمر بالاستعاذة بالله من الشيطان، قال تعالى: ﴿**فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾(٢).

---

(١) الآية ١٨ من سورة مريم.

(٢) الآية ٩٨ من سورة النحل.

ويقول تعالى في آية أخرى: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾(١).

ولم يقل: من شر كل متكبر..

ونجيب عن تعوذ مريم:

أولاً: إن مريم امرأة، ويجدر بالمرأة الكاملة المتمحضة في العفة والصلاح: أن لا ترى رجلاً ولا يراها رجل. وقد سأل النبي «صلى الله عليه وآله» السيدة الزهراء «عليها السلام»: أي شيء خير للمرأة؟!

قالت: أن لا ترى رجلاً، ولا يراها رجل(٢).

---

(١) الآية ٢٧ من سورة غافر.

(٢) هذا الحديث مروي عن النبي « صلى الله عليه وآله »، وعن الإمام الصادق «عليه السلام»، وعن علي «عليه السلام»، فراجع نصوصه هذه في: بحار الأنوار ج٤٣ ص٨٤ و ٥٤ وج١٠٠ ص٢٣٩ وج١٠١ ص ٣٦ ووسائل الشيعة ج٢٠ ص٢٣٢ و ٦٧ وإحقاق الحق (الملحقات) ج٩ ص٢٠٢ و ٢٠٣ عن البزار، وج١٠ ص٢٢٤ و ٢٢٦ عن مصادر كثيرة. وراجع: مجمع الزوائد ج٤ ص٢٥٥ وج٩ ص٢٠٣ وكشف الأستار عن مسند البزار ج٣ ص٢٣٥ وفضائل الخمسة من الصحاح الستة ج٣ ص١٥٣ و ٥٤ عن كنز العمال ج٨ ص٣١٥. وراجع: الكبائر للذهبي ص١٧٦ ودعائم الإسلام ج٢ ص١٢٤ و ٢١٥ و ٢١٤ وإسعاف الراغبين (مطبوع بهامش نور الأبصار) ص١٧١ و ١٧٢ و ١٩١ وكشف الغمة ج٢ ص٩٢ ومكارم الأخلاق ص٢٣٣ ومناقب آل أبي طالب

ونفس وجود الرجل بالقرب منها مرفوض ومبغوض لها، وإن لم يصدر منه أي شيء سلبي تجاهها، وهكذا يقال بالنسبة للمتكبر، فإن الإنسان ينفر ويشمأز منه، وإن لم يصدر منه أي خلل، أو خطل..

كما أن هذا أيضاً هو حال الشيطان، فإنه مبغوض لمجرد كونه شيطاناً.

ولكن الله تعالى قد أمر نبيه بأن يتعوذ أيضاً من شر الوسواس الخناس، وهو تعالى الذي يذكر في كتابه الكريم: أنه لا سلطان للشيطان على الأنبياء، ولا يقدر على الوسوسة لهم، وإغوائهم. ولكنه قادر على إفساد أعمالهم، فمثلاً قد يهدي النبي «صلى الله عليه وآله» بعض الناس، ويبذل في هذا السبيل الكثير من الجهد..

ولكن الشيطان بتزييناته وأحابيله يفسد هذا المهتدي، ويعيده إلى الغواية والضلال..

وهذا ما أشير إليه في قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ**

ج٣ ص١١٩ وعوالم العلوم ج١١ ص١٩٧ ومقتل الحسين للخوارزمي ج١ ص٦٢ وحلية الأولياء ج٢ ص٤١ ومناقب الإمام علي «عليه السلام» لابن المغازلي ص٣٨١ ومناقب أمير المؤمنين علي «عليه السلام» للكوفي ج٢ ص٢١٠ و ٢١١ وضياء العالمين (مخطوط) ج٢ قسم ٣ ص١٤ عن المناقب. والدرة اليتيمة في بعض فضائل السيدة العظيمة ص٣١. وثمة مصادر كثيرة أخرى ذكر شطراً منها في كتاب عوالم العلوم. وغيره من كتب الحديث والسيرة والتاريخ.

اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(١).

فالنبي إنما يتمنى نجاح مسعاه في هداية الناس، وإصلاح أمورهم، فيفسد الشيطان أمنيته، ويزين للناس الانحراف والضلال بمكره ومكائده، ويثير الفتن بين الناس، ويزرع الشبهات في أذهانهم، ويفسد ضمائرهم.

(١) الآية ٥٢ من سورة الحج.

الفصل الخامس :

وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ..

النفاثات في العقد:

إن أول ما نحتاج إليه في هذه الآية المباركة هو معرفة المراد من النفاثات في العقد، ولو بالمراجعة إلى كتب اللغة، وأقوال المفسرين، وغير ذلك.. مع علمنا: بأن بعض ما يذكره المفسرون أو غيرهم قد يكون من باب التطبيق لمفاهيم عامة على مصاديقها.

فالنفث في اللغة: النفخ، أو البصق القليل المصاحب للنفخ.

ويفهم من بعضهم: أن النفث نفخ يصاحبه إظهار، فكأنه يبصق، وهو لا يبصق.

أما في مقام التطبيق، فقيل: إن النفاثات في العقد هن النساء الساحرات. مع أن السحر والنفث في العقد لا يقتصر على النساء اللواتي كن يقرأن الأوراد، ثم ينفخن في عقد يعقدونها ليتم لهن السحر بذلك.

وقيل: المراد: وسوسات النساء للرجال، لثني عزائمهم عن القيام ببعض المهمات الجليلة.

أو المراد: النساء اللواتي يستخرجن الأسرار الخطيرة من الرجال، لتزويد الأعداء بها.

أو المراد: الجماعات التي تثير الشائعات وتشحن الأجواء بالتشنجات، أو يسعون في الفتنة والنميمة وغير ذلك، بهدف الإضرار بحياة الناس، وتفكيك المجتمعات.

وربما كانت جميع هذه المعاني مندرجة تحت مفهوم جامع يشمل جميع ما ذكر.

التعوذ من الشيء لا يعني الابتلاء به:

وبعدما تقدم نقول:

١ ـ من المعلوم: أن نبينا «صلَّى الله عليه وآله» لا يتعامل مع نفسه على اساس أنه معصوم، ولا يحتاج إلى التسديد، والتوفيق الإلهي، والمعونة الربانية، بل هو بسبب عظمة الله في نفسه، وشعوره بجليل نعمه، وجزيل عطاياه وعظمته وجلاله يرى نفسه مقصراً، بل عاجزاً قاصراً عن شكر نعمه، وأداء حقه. وهو يبقى دائماً عاكفاً على التقرب إليه بالطاعات، وعلى طلب المزيد من الرعاية والتوفيق، والتسديد منه تعالى.

٢ ـ ومن المعلوم أيضاً: أن التعوذ من شيء لا يعني أن المتعوذ يوشك على الوقوع فيه، لأن الله يريد أن يكون سبب التعوذ هو الشعور، واليقين: بأن ما به التعوذ إنما هو من نعمه، ومن عطاياه، فهو يسأله أن يواصل إغداق النعم عليه، ودفع الشرور عنه.

٣ ـ إن الإنسان يتعوذ بالله من الأمراض، ومن ميتة السوء، أو من الشيطان. مع أن المتعوذ إن كان نبياً أو إماماً، فإن الشيطان لم يتمكن من التسلط عليه بعد، كما أنه إذا تعوذ به تعالى وقال: اللهم لا تسلط علينا من لا

يرحمنا، ولا يخشاك. فلا يعني ذلك: أن المتعوذ سوف يبتلى بما استعاذ بالله منه.

بل هو يعني: أن الاستعاذة والدعاء واللجوء إلى الله هو الذي جعل المستعيذ أهلاً لنيل الكرامة والرعاية الإلهية، وهو من أسباب صيرورته في كنفه تعالى وفي حفظه.

فالاستعاذة من كيد السحرة وشرورهم تجعل المستعيذ أهلاً للبقاء في حفظه تعالى، ومن أهل كرامته.

ومعنى هذا: أن الاستعاذة من النفاثات إن كان يراد بها الساحرات، وأن النبي هو الذي يستعيذ من شرهن، فلا يعني ذلك: أنه «صلَّى الله عليه وآله» قد سحر، وأن السحر قد أثَّر فيه، وأن هذا التعوذ هو الذي رفع أثر السحر عنه.

بل هو يدل على استمرار صونه من تأثير السحر فيه.. ويكون تعوذه هذا من موجبات هذا الاستمرار.

لماذا خصوص النساء النفاثات؟!:

إن ثمة سؤالاً يحتاج إلى جواب، وهو: إن كان المراد بالنفاثات هو خصوص النساء الساحرات، حيث إنها جمعت بالألف والتاء، وهي صيغة جمع المؤنث السالم، لأن النساء حين يمارسن السحر، يعقدن عقداً، ويقرأن أوراداً، وينفثن في تلك العقد.. فمن المعلوم: أن السحر والنفث في العقد حين قراءة الأوراد لا يختص بالنساء، بل يشمل السحرة من الرجال أيضاً.

فلماذا خصَّ الكلام بالنساء دون الرجال؟!

ونجيب:

بنفس ما تقدم في الجواب عن سبب قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَبَ﴾، حيث لم يكتف بذكر الغاسق، الذي يجعل من ظلمة الليل ستاراً له ليسعى لحاجاته التي هي شرور على الأكثر.

وخلاصة الجواب هنا: أن آية النفاثات في العقد قد ذكرت أحد الشرور التي هي أشد خفاء، وأعظم خطورة من الغاسق، حتى إذا وقب.

بيان ذلك: أن الغاسق ـ كما تقدم ـ وإن تخفى بالظلمة الشديدة في نصف الليل، أو حتى إذا وقب، فإنه يمكن كشفه، أو انكشافه بوسائط عديدة، حتى بالعين المجردة أحياناً، كما إذا أمكن إنارة المكان بصورة مفاجئة، ويمكن كشفه باللمس، أو بسماع الصوت إذا تعثر بما يثير صوتاً، وربما كان قد وضع شيئاً بطريقة ذكية لهذه الغاية.. ويمكن أن يثور لديه سعال يفضح أمره، أو تصدر أية رائحة طيبة أو كريهة، أو غير ذلك كما تقدم.

أما النفاثات في العقد، فأمرها أكثر خفاء، وكشف حالها أشد صعوبة. فإن الساحر والساحرة لا يتستران بالظلام، ولا يمكن كشف حالهما بما ذكر في الغاسق.

فالساحر يحاول أن يتستر في بيته، أو في غيره، كالمغاور وسواها. ولكن الساحرة أقدر على إخفاء أمرها، لأنها تعيش في خدرها، خلف جدر، وأبواب مغلقة، وستائر مرخاة على مختلف المنافذ.. لكي لا يراها الرجال وهم نصف المجتمع. وتستطيع أن تخفي ما تفعله عن النصف الباقي، لأنها هي التي تتحكم في موضوع اللقاء مع من شاءت، وتحتجب عمن تريد..

ولو عرف أنها تتعاطى السحر، فإن الكثيرات يبتعدن عنها خوفاً منها،

بل هي لو قرأت الأوراد، ونفخت في العقد، فإن من يراها لا يستطيع أن يعرف من هو المقصود بعملها هذا..

بل لا يستطيع أحد أن يدَّعي أن ما تقرأه هو رقية لشفاء مريض، أو دعاء لقضاء حاجة، أو ممارسة لعمل السحر.. بل هي تستطيع أن تفعل ما تريد في ساعات خلواتها، ولا يعرف ولا يفطن لها أحد.

وهذا معناه: أن الغموض يلف هذا الموضوع من جميع الجهات، وأن الحجب المختلفة تمنع من الوصول إليه، فهي تستفيد من الحجاب الشرعي الذي يمنع لقاءها بالرجال، ومن الحجب النفسية والطبيعية، وسواها.. فكشف هذا الأمر لا يكون إلا بإقرار الساحرة على نفسها، أو بحصول صدفة نادرة قد لا تحصل، ولا يمكن كشف فعلها، لا بالصوت ولا باللمس، ولا بالعين، ولا بالشامَّة ولا الذائقة.

وحتى لو عثر على بعض ما يدل على ممارسة السحر، كالكتابة وغيرها، فإنها لا تحمل في العادة ما يشير إلى شخص الذي كتبها أو عالجها بسحره..

وحتى لو عممنا معنى النفاثات في العقد لتشمل من يمشي بالنميمة، والفتنة، أو التجسس أو غير ذلك مما ينتهي بنقض العُقَد، وفصم العرى، والإساءة إلى علاقات الناس ببعضهم، فإن القدرة على التخفي بصورة الناصح والمحب، وغير ذلك أمر ميسور لأمثال هؤلاء.. ويصعب اكتشاف مقاصدهم ونواياهم إلا إذا أقروا هم على أنفسهم.

ونحو هذا أيضاً يقال في النساء اللواتي يسعين لصد أهل الخير، والهمم العالية عن الأعمال الصالحة، والقيام بواجباتهم ومسؤولياتهم.

شرور الحاسد:

وآخر آية في هذه السورة المباركة هي قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

ونشير في البداية إلى ما يلي:

١ ـ المراد بالحاسد: هو الذي لا يطيق أن يرى النعمة على غيره، ويتمنى زوالها عن ذلك الغير.

والمراد به في هذه الآية: هو الحسد بما هو حالة نفسية، والحاسد هو من تكون هذه الخصلة كامنة فيه، ولو لم يطَّلع عليها أحد.. وربما ظهرت عليه بعض الإشارات، أو الأمارات الدالة عليها.

٢ ـ وهي خصلة مذمومة وممقوتة، وقد تستفحل لدى بعض الناس، فتظهر على شكل ممارسات عدوانية منه تجاه المحسود، من دون سبب ظاهر.

كما أنها قد تترك آثارها السلبية حتى على الماديات، كالشجر والحجر والحيوان وغيره. فربما نظر الحاسد إلى الشجرة فتيبس، أو الحجر الذي ينفلق، أو البقرة الحلوب فتصاب بعاهة، أو تموت فجأة أيضاً.

وقد ورد في الروايات: أن جبرئيل «عليه السلام» نزل على النبي «صلى الله عليه وآله» فرآه مغتماً، فسأله عن غمه.

فقال له: إن الحسنين «عليهما السلام» أصابتهما عين.

فقال له: يا محمد، العين حق، فعوَّذهما بهذه العوذة، وذكرها[١].

---

(١) بحار الأنوار ج٦٠ ص١٨ ج٩٢ ص١٣٢ عن زبدة البيان، وجنة الأمان، عن

والعين هي من مفردات هذا الحسد البغيض، الذي يعوَّذ منه من تعرض له.

٣ ـ إن التعبير بـ ﴿حَاسِدٍ﴾ لا يعني وجود حالة الحسد فيه بالفعل.

بل المراد: أنه قد تلبس بمبدأ الحسد، فأصبح بحيث تتحرك فيه حالة الحسد كلما رأى النعمة على غيره.

شاهدنا على ذلك قوله: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾. أي أن الشر سوف يصدر عن هذا الحاسد، إذا تحرك الحسد في داخله، وصار فعلياً.

إذا حسد:

وقد لاحظنا هنا: أنه استفاد من كلمة ﴿إِذَا﴾، فقال: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾.

وسبب ذلك: هو نفس ما ذكرناه في قوله ﴿إِذَا وَقَبَ﴾، فإن كلمة ﴿إِذَا﴾ تستعمل في مقام الجزم بحصول مدخولها، فإن الشر الذي يريد أن يستعيذ منه، هو الشر الذي نعلم: بأنه سيحصل حين يصبح الحسد فعلياً.

ولو قال: إن حسد، فإن الشر يصبح مشكوك الحصول أيضاً، فلا يوجد دافع قوي للتعوذ منه.

عبد الكريم بن محمد بن المظفر، السمعاني في كتابه، وراجع: المجتنى من دعاء المجتبى لابن طاووس ص٩٣ وحديث خيثمة ص٢٠٤ وكنز العمال (ط مؤسسة الرسالة) ج١٠ ص١٠٨ وتفسير القرآن العظيم ج٤ ص٤٣٩ وتاريخ مدينة دمشق ج٢٤ ص٤٦٠ و ٤٦١ والمحاضرات والمحاورات للسيوطي ص١٠٦ ونهاية الأرب ج٥ ص٣٢١ وشرح إحقاق الحق (الملحقات) ج١٠ ص٥٢٥ وج٢٦ ص٢٠٣.

هذه الآية أشد من سابقاتها:

وقد أشرنا فيما سبق إلى أن الآيات الثلاث الأخيرة في هذه السورة المباركة، قد جاءت تصاعدية من حيث درجة خفاء شرورها. والآية الأخيرة كانت هي الدرجة القصوى من هذه الجهة. وهي الأشد خفاءاً، مما يعني: أنها أشد خطورة.

بيان ذلك: أن الشر الذي يراد التعوذ منه ليس هو الشر الذي يتوقعه الناس العاديون، كمبادرة الحاسد إلى إهانة المحسود، أو غيبته، أو السخرية منه، أو أن ينم عليه، أو أن يتجسس عليه، وما إلى ذلك.

بل المقصود: أن هذا الحسد إذا حصل يصبح في غاية الخطورة، بسبب شدة خفائه في داخل ذات الحاسد. ولذلك تكون مقاومة شروره في غاية الصعوبة، وتحتاج إلى التعوذ بالله سبحانه منه. لأنه حالة نفسية لا يمكن أن تناله الحواس، فهو ليس مما يُرى، ولا مما يمكن سماعه، أو لمسه، أو شمه، أو.. أو.. الخ..

ولا هو مما يمكن أن يكتشف بالصدفة، إذ ليس له أي ظهور مادي.

ولكن الغاسق يمكن الوصول إليه بواسطة الحواس. والنفاثات في العقد، وإن كان اكتشافها صعباً جداً.. ولكنه أيضاً عمل جوارحي قابل للكشف، ولو عن طريق الصدفة. ولاسيما إذا ضعفت حالة التحرز والتخفي به. وقد يتمكن أحدهم من سماع بعض أوراده، أو من الحصول على مكتوباته التي قد يعرف من كتبها.. وقد.. وقد..

كلمة أخيرة:

وبعد..

فقد كانت تلك بعض اللمحات التي ربما تستفاد من هذه السورة المباركة.. ولعل الباحثين، والمحققين، وأهل الفكر يستفيدون منها أضعاف ما ذكرناه.

ويبقى الكثير الطيب المخزون عند أهل البيت «عليهم السلام» الذين هم حملة الكتاب، والمقصودون بالخطاب، فإنما يعرف القرآن من خوطب به.

ولأننا نعرف في أنفسنا القصور عن فهم معاني القرآن ومراميه، وأننا في معرض الوقوع في الأخطاء، وتعرض لنا الغفلات، ولسنا في منأى عن السقطات، فإننا نلتمس من القارئ الكريم: أن يغض الطرف عما يصادف منها، وأن يلفت نظرنا إلى ذلك، علَّنا نوفق للتصحيح أو التوضيح في الطبعات اللاحقة.

ربنا لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين أبداً، وأعذنا من شرور أنفسنا، وسيئات

أعمالنا، إنك ولي قدير، وبالإجابة حري وجدير..

والحمد لله، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى، محمد وآله الطيبين الطاهرين..

حرر بتاريخ ٢٥ جمادى الآخرة سنة ١٤٣٧ هـ. ق

٤ / ٤/ ٢٠١٦ م. ش.

بيروت ـ لبنان

جعفر مرتضى الحسيني العاملي

تفسير سورة الناس

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الناس

مقدمة:

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين. واللعنة على أعدائهم أجمعين، إلى قيام يوم الدين.

وبعد..

فإن ما تشتمل عليه هذه الصفحات اليسيرة، هو أفكار طرحت في عدة جلسات، عقدت في شهري ربيع الأول والثاني من هذا العام (سنة ١٤١٩هـ) لبعض الإخوة الراغبين. وقد يروق للبعض أن يطلق عليها عنوان (تفسير سورة الناس) المباركة.

وقد كانت في الأصل مسجلة على أشرطة تسجيل، فتصدى الأخ الكريم، والموفق، والصديق الحميم، وفيق سعد (أبو دانيال) لاستخراجها؛ والاهتمام بشأنها، فجزاه الله خير جزاء العاملين المخلصين.. ثم أجريت عليها تعديلات في عباراتها أدخلتها في سياق اللغة الفصحى.

وحين مراجعتها حاولت أن لا أضيف عليها شيئاً، إن لم أقل: إنني حذفت منها ما لا حاجة إليه، غير أنني لم أوفق إلى تجريدها عن التكرار، ولا صيانتها عن الضعف في بعض تراكيبها. لأننا أحببنا أن لا تغيب عنها بالكلية مسحة الخطاب العفوي للناس، على أننا لو أردنا ذلك، فسنحتاج إلى كتابتها

بمنهجية جديدة تخضعها إلى الضوابط المعتمدة في التصنيف والتأليف.

ومهما يكن من أمر، فإن خير ما أطلبه من القارئ الكريم هو أن يغض الطرف عما يجده فيها من قصور أو تقصير، وأن يتحفني بما يراه أوفق بالسياق القرآني، وأقرب إلى الفكرة التي حملتها لنا لغة هذا الكتاب السماوي الخالد.

كما أن أغلى وأسمى ما أتمناه هو التوفيق، والتسديد، والرشاد لكل العاملين المخلصين، وجميع القراء وغيرهم من المهتمين بالمعارف القرآنية، وقضايا الإيمان..

وإلى القارئ الكريم أتقدم بعذري، وله خالص حبِّي وشكري..

والحمد لله، وصلاته وسلامه على عباده الذين اصطفى، محمد وآله الطاهرين.

٥ رجب ١٤١٩ هـ.ق

جعفر مرتضى العاملي

الفصل الأول:

ممهدات..

من الحديث الشريف:

١ ـ عن سليمان الجعفري، عن أبي الحسن «عليه السلام» قال: سمعته يقول: «ما من أحد في حد الصبى يتعهد في كل ليلة قراءة قل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس، كل واحدة ثلاث مرات، وقل هو الله أحد مائة مرة، إن لم يقدر فخمسين، إلا صرف الله «عز وجل» عنه كل لمم، أو عرض من أعراض الصبيان، والعطاش، وفساد المعدة، وبدور الدم أبداً ما تعهد بهذا حتى يبلغه المشيب، فإن تعهد بنفسه بذلك أو تعوهد كان محفوظاً إلى يوم يقبض الله «عز وجل» نفسه»(١).

٢ ـ عن يعقوب بن يقطين قال: سألت العبد الصالح، عن القراءة في الـوتر، وقلت: إن بعضاً روى: «قل هو الله أحـد» في الثلاث، وبعض روى في الأولين المعوذتين، وفي الثالثة: قل هو الله أحد؟!

فقال: اعملنْ بالمعوذتين، وقل هو الله أحد(٢).

---

(١) الكافي ج٢ ص٦٢٣ ووسائل الشيعة (آل البيت) ج٦ ص٢٢٨ و (الإسلامية) ج٤ ص٨٧١.

(٢) تهذيب الأحكام ج٢ ص١٢٧ ووسائل الشيعة (آل البيت) ج٦ ص١١٥ و ١٣٢

٣ ـ روي عن النبي «صلى الله عليه وآله» أنه قال: «من قرأ هذه السورة على ألم سكن بإذن الله تعالى، وهي شفاء لمن قرأها»(١).

٤ ـ قال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: «من قرأها عند النوم كان في حرز الله تعالى حتى يصبح وهي عوذة من كل ألم ووجع وآفة وهي شفاء لمن قرأها»(٢).

٥ ـ قال الصادق «عليه السلام»: «من قرأها في منزله كل ليلة أمن من الجن والوسواس، ومن كتبها وعلقها على الأطفال الصغار حفظوا من الجان بإذن الله»(٣).

٦ ـ روي أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» اشتكى شكوى شديدة، ووجع وجعاً شديداً، فأتاه جبرائيل وميكائيل «عليهما السلام» فقعد جبرائيل عند رأسه، وميكائيل عند رجليه، فعوذه جبرائيل بـ: قل أعوذ برب الفلق، وميكائيل بـ: قل أعوذ برب الناس(٤).

٧ ـ عن الإمام الباقر «عليه السلام»: «من أوتر بالمعوذتين، وقل هو

و (الإسلامية) ج٤ ص٧٨٦ و ٧٩٨.

(١) البرهان (تفسير) ج٤ ص٥٣٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣)المصدر السابق.

(٤) بحار الأنوار ج١٨ ص٧١ ومجمع البيان (تفسير) ج١٠ ص٤٩٥ ونور الثقلين (تفسير) ج٥ ص٧١٧.

الله أحد. قيل له: «يا عبد الله، أبشر، فقد قبل الله وترك»[١].

٨ ـ وعن النبي «صلى الله عليه وآله» أنه قال: «أنزلت عليَّ آيات لم ينزل مثلهن، المعوذتان»[٢].

٩ ـ وعنه «صلى الله عليه وآله» أنه قال لأحد أصحابه: «ألا اعلمك سورتين هما أفضل سور القرآن، أو من أفضل القرآن؟

قلت: بلى يا رسول الله.

فعلمنا المعوذتين، ثم قرأ بهما في صلاة الغداة. وقال لي: اقرأهما كلما قمت ونمت»[٣].

هذه السورة وحديث سحر النبي صلى الله عليه وآله:

إننا قبل أن نشرع في تفسير آيات هذه السورة المباركة نشير إلى أن بعض الروايات التي لا تثبت أمام النقد العلمي قد زعمت أن النبي «صلى الله عليه وآله» قد سُحِر من قبل لبيد بن الأعصم اليهودي. وأن هذا السحر قد أثّر على تصرفاته «صلى الله عليه وآله» بطريقة سلبية، فنزلت سورتا الفلق والناس لأجل ذلك.

ومن الواضح: أن هذه الروايات وأمثالها مجعولة من قبل أعداء

---

(١) الأمالي للشيخ الصدوق ص١١٥ ووسائل الشيعة (آل البيت) ج٦ ص١٣٢ و (الإسلامية) ج٤ ص٧٩٩.

(٢) مجمع البيان (تفسير) ج١٠ ص٤٩١ ونور الثقلين (تفسير) ج٥ ص٧١٦.

(٣) جامع أحاديث الشيعة ج١٥ ص١٤٧ ونور الثقلين (تفسير) ج٥ ص٧١٦.

الإسلام لتصديق قول المشركين: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾[١].

ولم يكن السحر ليؤثر على تصرفاته «صلى الله عليه وآله» من خلال تأثيره في قلبه وروحه، وعقله وفكره. وإن كان قد يترك أثراً مادياً، كإحساسه «صلى الله عليه وآله» بثقل وتعب في جسده، كتأثير أيّ شيء ضار آخر على جسده الشريف، كالسم أو الحر أو البرد أو ما إلى ذلك.

ولو كان بمقدور اليهود أن يؤثروا بسحرهم على رسول الله «صلى الله عليه وآله»، لاستطاعوا أن يصدوه عن أهدافه، وأن يتلاعبوا به، إلى درجة يفقد الناس الثقة بـه «صلى الله عليه وآله»، وبما جاء به.

أضف إلى ما تقدم: أن هذه السورة مكية، وقضية سحر اليهود له «صلى الله عليه وآله» على يد لبيد بن الأعصم إنما كانت في المدينة.

---

(١) الآية ٤٧ من سورة الإسراء.

الفصل الثاني

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ..

البسملة:

بالنسبة للآية الكريمة: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ نقول:

إننا قد شرحناها في تفسير سورة الفاتحة، ولذا فلا نرى حاجة إلى الإعادة.

فمن أراد الإطلاع على ذلك فليرجع إلى ذلك الكتاب.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾:

قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾.

بدأ الله «سبحانه وتعالى» هذه السورة بكلمة ﴿قُلْ﴾ ولذلك نظائر كثيرة في القرآن:

مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾(١)، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾(٢)، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾(٣)..

وغير ذلك..

---

(١) الآية ١ من سورة الإخلاص.

(٢) الآية ١ من سورة الفلق.

(٣) الآية ١ من سورة الكافرون.

ومن الواضح: أن كلمة ﴿**قُلْ**﴾ الواردة في جميع سور القرآن هي جزء من القرآن، وليست قولاً يسبق النص القرآني. كما أنه ليس المقصود مجرد الأمر بالتلفظ بما بعدها، بل المقصود هو الأمر بالبيان والتعريف والشرح.. فكأنه قال: بين للناس أن الله أحد.. ﴿**مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ**﴾(١).. ﴿**يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ**﴾(٢).. و.. و..

فكما يخاطب الله «سبحانه وتعالى» نبيه بـ ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ..**﴾(٣). كذلك هو تعالى يخاطبه في موارد عديدة بكلمة ﴿**قُلْ**﴾. فَكَونُ الكلمة خطاباً لا يعني أنها ليست قرآناً.. بل هي جزء من الكلام القرآني الآتي به جبرئيل ليبلغه للنبي «صلى الله عليه وآله».

ومفادها: أن عليك ـ أيها النبي ـ أن تركز هذه الحقيقة وتؤكدها في عقول الناس، بأسلوبك وبأدلتك المناسبة، حيث تحتاج إلى أن تستدل لهم، وإلى أن تفتح أعينهم على بعض آثار عظمة الله وقدرته ليقتنعوا بأن الله أحد أو بأنك لست على استعداد لأن تعبد ما يعبدون.. ونحو ذلك.

وهذا لا يعني أن التلفظ بما بعد كلمة ﴿**قُلْ**﴾ غير مطلوب أصلاً بل هو الآخر قد يكون مطلوباً أيضاً.

والأمر فيما نحن فيه من هذا القبيل أيضاً حيث يكون المطلوب هو أن

---

(١) الآية ٩ من سورة الأحقاف.

(٢) الآيتان ١ و ٢ من سورة الكافرون.

(٣) الآية ٦٧ من سورة المائدة.

تشعر شعوراً حقيقياً بأنك في كنف الله، وأنك ملتجئ إليه، وتستعيذ به، ليحفظك ويصونك. أي أن يكون لديك شعور وقناعة فكرية، واستسلام خارجي حقيقي، يظهر أثره بالفعل، ويتجسد في حركاتك، وفي سكناتك، وفي أفعالك وأقوالك، ومشاعرك، وقناعاتك.

ولا ضير في أن تصِّرح بهذا الأمر، وتتكلم به لساناً أيضاً؛ وتنشؤه قولاً، ليساعد على إيجاد هذه الحالة في وجودك، وكيانك، وعقلك، ومشاعرك.

وقد يظهر من ذلك: أن إستعماله تعالى لكلمة: ﴿**قُلْ أَعُوذُ**﴾ بدل كلمة: «تعوذوا» أو «تعوذ أيها الإنسان برب الناس» هو الأولى والأفضل.

من هو المخاطب بكلمة: ﴿قُلْ﴾:

ويرد هنا سؤال، هو: هل الخطاب بكلمة: ﴿**قُلْ**﴾ موجه لخصوص رسول الله «صلى الله عليه وآله»، أو لكل إنسان؟!

والجواب:

أن الخطاب في بعض الموارد خاص بالنبي «صلى الله عليه وآله»، مثل قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ**﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿**قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾(٢).

وفي بعض الموارد ليس كذلك، مثل قوله تعالى: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخُنَّاسِ**﴾، فإنه «صلى الله

---

(١) الآية ١١٠ من سورة الكهف، والآية ٦ من سورة فصلت.

(٢) الآية ٥٩ من سورة الأحزاب.

عليه وآله» أعظم وأكمل إنسان، وهو مورد العناية الإلهية بصورة قاطعة، وليس للوسواس الخناس من الجِنَّة والناس سبيل عليه، فلا مورد لأن يستعيذ «صلى الله عليه وآله» منه إستعاذة حقيقية بحيث تستبطن أن لإبليس طريقاً عليه.

نعم، قد يكون لإستعاذته «صلى الله عليه وآله» الدائمة وتحصنه بالله، أثر في تأكيد كمالاته، ورفعة مقامه «صلى الله عليه وآله».

وهذا يعني: أن يكون الخطاب للإنسان العاقل الملتفت إلى المخاطر التي تحيط به. لتكون الإستعاذة بذلك حصناً له من كل سوء شيطاني.

وحتى لو سلمنا: أن المخاطب في هذه السورة بكلمة: ﴿**قُلْ**﴾ هو رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فإننا إذا أخذنا ما ذكرناه آنفاً بنظر الإعتبار، فإن الأمـر أيضاً لا يخرج عن السياق المتعارف في الخطابات التي يقصد بها إظهار المزيد من الإهتمام والتحضيض على هذا الأمر الخطير؛ على قاعدة: «إياك أعني واسمعي يـا جارة». فإنـه إذا كان الله يأمر نبيه، الذي لا سبيل لشياطين الجن والإنس عليه، بأن يجهر بالتعوذ، ولا يكتفي باستشعار ذلك في القلب والروح؛ بل لا بد أن يكون ذلك حالة نفسية، وفكرية، وعقلية، ومشاعرية، وقولية لديه. فإن الأمر يصبح بالنسبة لغيره أوضح وأصرح وأبين.

فكلمة: ﴿**قُلْ**﴾ وإن كانت في الظاهر خطاباً للنبي «صلى الله عليه وآله» لكنها في الحقيقة خطاب لنا. وهذا أبلغ في البيان، وادعى في الالتزام، ما دام الله «عز وجل» لا يريد لنا أن يقتصر تعوّذنا به تعالى على كونه مجرد حالة نفسية، بل يريد أن يظهر على الجوارح بالقول والممارسة، ليصبح هذا الأمر ـ من ثم ـ من وسائل الوصول إلى الله، والحصول على رضاه «سبحانه وتعالى»

ومن ثم التحلي بالكمالات.

قوله تعالى: ﴿أَعُوذُ﴾:

أن يعوذ الإنسان من شيء هو أن يكون ثمة شيء يخاف منه، وهو عاجز عنه، فيعوذ بمن يدفع عنه غائلة ما يخاف منه، ويتقوى به على ما يعجز عنه.. إذن فمن يستعيذ له خصوصيتان:

إحداهما: أنه عاجز، لا يملك القوة، وأنه يحتاج إلى غيره.

والأخرى: أنه من وجهة نظر نفسية ليس على مستوى الكمال، بل هو يعاني من الخوف والوجل، والترقب.

وذلك يعني: أنه يجهل بما تؤول إليه الأمور. ولولا ذلك لم يكن ثمة داع للخوف.

هذا في غير الأنبياء «عليهم الصلاة والسلام». أما الأنبياء أنفسهم، فإن الإستعاذة تحقق مزيداً من الحصانة ومزيداً من القوة والرسوخ لهم في العصمة. ولا تستبطن نقصاً عن مستوى الكمال فيهم.

الفرق بين أعوذ وألوذ:

والعوذ إنما يكون في صورة وجود خطر داهم يدفع الإنسان إلى أن يلتجئ إلى من يدفعه عنه بقوته، ويؤمنه منه بسلطانه..

وليس المطلوب مجرد أن يجد «ملاذاً» يخفي نفسه وراءه، ومن هنا يظهر الفرق بين أن تقول: «ألوذ» وبين أن تقول: «أعوذ».. فبينما «ألوذ» لا تستبطن أزيد من الإلتجاء للإختباء والإختفاء، فإن كلمة أعوذ تستبطن الإلتجاء مع

الدفع بالقوة والحماية والأمان. ولأجل ذلك قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ﴾، ولم يقل: «قل ألوذ».

المستعاذ به:

وأما من يستعاذ به، فهو من جهة، يجب أن يكـون قادراً على أن يدفع عنه ما يخاف، ومن جهة أخرى هو قادر على أن يرفع عجزه، ويتمم نقصه، ويؤمن روعه.

وهذا معناه: أن يكون لديه قدرات وإمكانات يمكنه أن يستغني عنها، ويبذلها لغيره. فهو كمن يملك مالاً هو بحاجة إليه ليستغني به عن الآخرين، ومعه مال آخر أيضاً يستطيع أن يستغني عنه وأن يبذله لغيره.

لكن الله «عز وجل» يبذل العطاء، والقدرات إلى الآخرين، دون أن يكون هو سبحانه بحاجة إليها.

لماذا يعيذ؟!:

أما بالنسبة للمعيذ، فلا بد أن يكون هناك داع له، لكي يبادر إلى العون والعوذ؛ فقد يكون الداعي هو النخوة، والشعور بالكرامة والعزة، حين يستجار به، حتى يعتبر أن الاعتداء على المستجير إعتداء عليه.

وقد يكون ذلك لأجل منافع ودوافع ترجع إليه، كالحصول على موقعٍ وامتياز معين.

وقـد يكون ذلك بدافع أسمى من ذلك، وهـو شعوره الإنساني، ورأفته وعطفه.

وقد يكون أسمى حتى من ذلك أيضاً، كالتقرب إلى الله «عز وجل»، من أجل نيل رضاه.

لكن إجارة الله «عز وجل» لنا لها طابع خاص، ومنطلق آخر؛ ألا وهو ربوبيته لنا؛ وكونه في موقع الهيمنة والملك، وفي مقام الألوهية، إلا أن ذلك في بعض مراتبه يتوقف على أن يجد فيمن يستعيذ إستحقاقاً للعون وللعوذ. وهذا الإستحقاق يدعو هذا الإنسان الضعيف المحتاج إلى تربية نفسه وفق المراد، لينال الرضا بوصوله إلى درجة استحقاق العناية والرعاية؛ إذ إن أحداً لا يستعيذ بعدوه، لأن العداوة تمنع عن العون، وعن طلبه. بل هو يستعيذ بمن يحب، ويندفع لمساعدته، ويجد لديه الرغبة بالدفاع عنه، والمحافظة عليه.

وإذا كانت الاستعاذة بالله، فإن هذا الأمر يستدعي أن يجعل الإنسان نفسه في وضع مقبول عند الله «عز وجل» ومرضي عنده؛ لأن من يبارز الله «عز وجل»، ويحاربه ويسخطه، كيف يتوقع من الله «عز وجل» أن يحفظه، وأن يجيره، ويعيذه؟!

فالإستعاذة هي إذن، أسلوب تربوي، يدعو الإنسان إلى تربية نفسه، وتصفيتها، وتهذيبها، إلى أن يحرز الإنسان كمالات تتوافق مع رغبات ورضى الله سبحانه، ليستحق منه العون والعوذ حين يستعيذ به.

قوله تعالى: ﴿بِرَبِّ النَّاسِ﴾:

ثم إن الملاحظ هنا: أن أول ما ذكره الله تعالى من المعاني، والصفات، والحالات التي يلزم التوجه إليها، هو صفة الربوبية، فإن كلمة: «رب» تعني الجهة التي تهتم وتعتني بحفظ هذا الإنسان، وتحرص على أن يتنامى في صراط الكمال،

فلا يعاني من عجز أو نقص، لا في معرفة، ولا في قدرة، ولا في أي أمر يوجب له الوهن والسقوط عن درجة التوازن والصلاح؛ لأن من يربيه إنما يهتم بما يصلحه ويرفع عنه عجزه وجهله وضعفه ونقصه، في مجالات الأخلاق والسلوك، والمميزات، وغيرها. وهو يقوم بعملية الرقابة، ويعمل على أن يسدّ الثغرات، وأن يدفع النقائص، ويستبدلها بالكمالات، ويبعد عن طريقه الأشواك، ويمنع عنه الإلتواءات والجفاف والأمراض..

ولذا، فإن أول كلمة جاء بها لتتعلق بها الاستعاذة هي كلمة «رب».

الخطاب للشخص الواحد:

ثم إنه تعالى قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ﴾ مخاطباً الشخص الواحد. ولم يقل: قولوا: «نعوذ».. مخاطباً الناس ـ كجماعة ـ ولعله من أجل أن يبعد هذا المستعيذ عن الشعور بالقوة، وبالإستغناء؛ حين يكون مع غيره، حيث يضعف في نفسه الشعور بكونه مستهدفاً بالضرر والخطر، بل قد يتخيل أن المستهدف به هو الآخرون دونه، لكنه يردد ما يرددون، ويقول ما يقولون.

أما حين يتوجه إليه بالخطاب مباشرة، فإنه يشعره أنه هو المحتاج للاستعاذة. لأنه هو المستهدف بالشر والضرر بما له من حيِّز ومساحة معينة، عليه أن يدافع عنها. والإنسان بحاجة إلى هذا التأكيد على شخصه، لأن وسوسة الشيطان وخطورة الدور الذي يقوم به، هو من الأمور الخفية التي لا يشعر بها الإنسان عادة. بل ربما يحس معها بالأنس واللذة، إذا كانت تداعب مشاعره، وتوقظ أحلامه وتتناغم مع غرائزه وأهوائه.

الأمر الذي يتطلب مزيداً من العناية في مجال إشعاره بالأخطار الجسام

التي تحدق به من جرّاء ذلك، و أنه المستهدف مباشرة.

مثال ونظير:

وهذا نظير شخصٍ يجلس إلى طاولة القمار، ليلعب بآلات القمار؛ فإنه بمجرد جلوسه إلى طاولة اللعب يتبلور لديه شعور بذاته، وأن له مساحة معينة، عليه أن يدافع عنها.

ثم هو في نفس الوقت يشعر شعوراً خفياً أن لا حرمة للطرف الآخر، بل لا بد له أن يخترق الحواجز إليه، وأن يحدث ثغرة في كيانه؛ وأن يعتدي على حرمته، ويبذل الجهد من أجل أن يذلّه، وينتقص من شأنه وقدره، وأن ينزل به الخسائر والأضرار.

وطبيعي أنه إذا استمر هذا الشعور لديه؛ فان كرامة وهيبة الطرف الآخر ستسقط في نفسه، ولسوف تتنامى حالة الأنانية في داخله، وبذلك يصبح إنساناً شرساً، معتدياً، لا قيمة عنده لكرامة الإنسان ولا لمشاعره.. وتسقط القيم حينئذٍ لديه، حتى ولو لم يكن ثمة رهان مالي يسعى من خلاله لأن يأكل أموال الناس بالباطل.

إنه ليس فقط لا يتألم لألمه، بل هو يحب له أن يتألم، بل هو يسعى لإيلامه، وإلى أن يوقعه في الخسائر، ويتسبب له بالمشاكل والمتاعب، ومن المؤكد أن هذا الشعور سيتنامى لديه تجاه الطرف الآخر إذا شعر أن هذا الآخر يحمل في داخله أيضاً هذا الشعور تجاهه. وعندئذ سيشعر كل طرف منهما أنه مستهدف بشخصه.

ولأجل ذلك قلنا:

إنه إذا شعر هذا الإنسان بوحدته، وأنه المستهدف بشخصه، وأن هناك سعياً لإلحاق الضرر به، والإنقاص منه، والاعتداء على كمالاته وإفقاده ما هو واجد له منها، إذا شعر بذلك فسيستنفر كل قواه ليدافع عن كيانه ووجوده، وحفظ ما لديه من كمالات..

إن جميع ما تقدم يبيّن لنا السبب في قوله تعالى: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ**..﴾ ولم يقل: «قولوا: نعوذ..».

كما أن كلمة «رب» ـ كما قلنا ـ تستبطن بالإضافة إلى ما أشرنا إليه: أن هناك علاقة وعناية.. فيما بين هذا المربوب وربه؛ ليست هي علاقة اللامبالاة، أو المصلحة، أو العداء، وإنما علاقة الحرص على الطرف الآخر، لِيُرَبِّيه من موقع التدبيرعلى أساس من العقل، والحكمة، لأن التربية تعني وجود رقابة على هذا الوجود الذي يريد له أن ينمو، ويتكامل، ويحفظ من اليبس، والجفاف، والالتواء الخ.. بحكمة، ورويَّة، وأناة..

فكلمة «رب» إذن تستبطن التدبير الذي يحتاج إلى الحكمة في التعامل مع المربوب والإحاطة بكل حالاته وشؤونه.. والرقابة الدقيقة.. والحرص على تكامله، وتستبطن أيضاً وجود علاقة حميمة ومحبة من قبل الرب من جهة ومن قبل العبد من جهة أخرى. فكما أن الله «عز وجل» يحبنا ويرأف بنا، كذلك فإنه لا بد أن نرتبط نحن به من خلال علاقة حميمة أيضاً، نحمل معها مشاعر، وأحاسيس. لكنها أحاسيس محبة وتعلق، فنحن مأمورون بأن نحب الله «عز وجل» حباً حقيقياً..

قال تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا﴾ (١).

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾(٢).

لماذا استعاذت مريم بالرحمن لا بربها؟:

ويرد هنا سؤال، وهو:

إن مريم «عليها السلام» قد استعاذت بالرحمن، ولم تستعذ بربها، فلم تقل: «أعوذ بربي منك»، بل قالت: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ (٣). فلماذا كان ذلك يا ترى؟!

وفي مقام الإجابة عن ذلك نقول:

إن مريم «عليها السلام» لم تكن تعلم الغيب.. وقد جاءها مخلوق، في مكان وزمان معين، وفي موقع يجعلها تخشى من حالات الاعتداء التي تنشأ من عدم التقوى، ولذا قالت: ﴿إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾.

ومن الواضح: أن هذا الشعور يجعلها تعاني من حرج نفسي شديد، لا سيما فيما يرتبط بالأمور الخاصة بها، وهي المرأة الحريصة جداً على طهارتها..

---

(١) الآية ١٦٥ من سورة البقرة.

(٢) الآية ٢٤ من سورة التوبة.

(٣) الآية ١٨ من سورة مريم.

وعفتها، وكرامتها، ودينها وتقواها، حتى قال قومها لها: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ (١).

فالتمست المعاذ، وتعوذت بالرحمن، في إلماح مرغب بالتوبة عن أي وسواس شيطاني ربما يكون قد راود هذا المخلوق الغريب، حين يتذكر الله وقدرته، وبطشه، كما يتذكر رأفته ورحمته؛ لكي تستجيب روحه لنداء التقوى، فتكون مريم «عليها السلام» قد جمعت بين الترغيب بالرحمة الإلهية، والترهيب من عقاب الله الشديد، الذي يحتاج إلى الحذر، وطلب الوقاية منه. وذلك أبلغ في الردع والمنع، فقالت: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾.

كما أن ذلك يستبطن إستعطافها لـه تعالى لتشملها عنايته مـن موقـع رحمانيته تعالى..

الربوبية والمحبة لا تحتم التدخل للحفظ:

ولا يظنن أحد أن محبة الله «عز وجل» لنا تعني لزوم التدخل منه تعالى للحفظ والرعاية تلقائياً، فـإن سنّة الله«عز وجل» قـد جرت على تعريض عبده للإبتلاء، ليكون أكثر صفاءً، وليجسّد فيه الاستحقاق للرعاية، ويدفعه للسعي نحو الكمال، ويرفع درجاته من خلال ذلك.

وقد ابتليت آسية بنت مزاحم بفرعون، واختار الله مريم لهذه المهمة الصعبة والخطيرة. والأمثلة على ذلك كثيرة.

والقول المأثور: «إن أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأوصياء، ثم الأمثل

---

(١) الآية ٢٨ من سورة مريم.

فالأمثل»، معروف ومشهور.

برب الناس هي الأوفق بالمراد:

وقد قال تعالى: ﴿..بِرَبِّ النَّاسِ﴾، ولم يقل «بربي»، مع أن الإنسان بحسب المألوف إنما يعوذ بربه هو، حيث يشعر إلى جانبه بالأمان والسلامة.

ولعل هذا التعبير قد جاء لأسباب ثلاثة، أو لأحدها:

الأول: أن ما يستعيذ منه هذا الشخص لا ينحصر تأثيره بخصوص المستعيذ، بل إن وسوسته حين تنعكس على ممارساته، ونفسه، وروحه، وكل حياته، وما يصدر عنه من سوء ستنال سلبياتها الآخرين أيضاً.. فإن الروح، والمشاعر، والممارسات، والمواقف، ستتعداه إلى غيره، لتكون سبباً في إفساد حياة الناس، وفي إتعابهم..

والله «عز وجل» الذي يرعى الجميع لأنه ربهم وحافظهم، لا بد أن يحفظه، كمقدمة إلى حفظهم؛ فجدير به أن يطلب من الله «عز وجل» حينئذ أن يرفع هذا الأمر السلبي عن نفسه، وعن غيره ممن يتعرضون للعدوان وللمشكلات بسبب تلك الوسوسة.

والإنسان إذا دعى الله سبحانه وتعالى فيما يرتبط بحفظ الكيان العام، فذلك أدعى لأن يكون هذا الدعاء أكثر خلوصاً، وأعظم أثراً، لما يرفده من إحساس عميق بحجم الكارثة التي يتعرض لها الكيان العام بسببه.

أضف إلى ذلك: أن الإنسان ربما لا يجد في نفسه أهلية لأن يدعو لنفسه، ولكنه يجد الجرأة على الدعاء لغيره، ليدفع البلاء عنهم. وذلك لأنه يرى من

نفسه أنها في مواقع لا ترضي الله، ولا تتورع عن ارتكاب المخالفات لأوامره وزواجره، الأمر الذي ربما يكون حاجزاً وعائقاً له عن أن يجهر بحاجته أمام الله «عز وجل» فيتوسل للحصول على مطلوبه بإبعاد الشر عن نفسه بما هو اكثر مقبولية ومعقولية بحسب نظره، فيقول: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ**﴾.

الثاني: إن الإنسان حينما يدعو مع غيره، فإنه سيشعر من خلال ذلك أنه يتحمل مسؤولية تجاه الآخرين، وأن التحفظ من الشرور والمخاوف والوساوس يجب أن يكون شاملاً وكاملاً، فلا يستهين بواجبه القاضي بحفظ هذا الكيان العام كله من أن تلوثه الروائح الكريهة، وتبدو عليه التشوهات المشينة.

الثالث: إنه لو قال: «ربي»، فربما يدور بخلد البعض: أن ذلك لا يعني رفض وجود الأرباب لغير الداعي أما قوله: ﴿**بِرَبِّ النَّاسِ**﴾ فيتضمن نفي الشريك وتوحيد الربوبية، وأن لا رب غيره للناس جميعاً.

ومن هنا صح أن يتعوذ برب الناس، ويكون هو المبرر للعدول عن نسبة كلمة الرب إلى ياء المتكلم «بربي» لينسبها إلى الناس ﴿**بِرَبِّ النَّاسِ**﴾.

إختيار كلمة ﴿النَّاسِ﴾ دون سواها:

وحيث إن الله «عز وجل» إنما يريد من الإنسان أن يكون إنساناً بكل ما لهذه الكلمة من دلالات، وخصائص ومميزات، فقد اختار أيضاً كلمة ﴿**النَّاسِ**﴾ دون كلمة «بشر» مثلاً، لأن كلمة «بشر» إنما تعني الشكل والصورة، من حيث إنه مخلوق له بشرة بادية، من دون أن يكون لها أي تعبير عن خصائص إنسانية في داخل ذاته.

ومن الواضح: أن التربية الإلهية إنما تُعنى بصورة أساسية بالأمور التي تختزن الميزات الإنسانية، والروحية، والعقلية. وليس ثمة مبرر للإهتمام بالنواحي المادية ككونه بشراً، أو ما إلى ذلك.

الفصل الثالث

مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ..

قوله تعالى: ﴿مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ﴾:

إن الله «عز وجل» قد بدأ بتعليم الإنسان بأن يتعوذ برب الناس، فذكر الربوبية أولاً كما تقدم، ثم ذكر الملك، فأمر بالتعوذ بـ ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾[1]، ثم ذكر الألوهية، فقال: ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾[2].

وذلك لأنه تعالى أراد أن يعلم الإنسان: أن ما يستعيذ به جامع لكل الصفات التي تجعل من هذه الاستعاذة إستعاذة حقيقية، ليس فيها أي ضعف أو عجز؛ لأنها استعاذة بمن يريد أن يعيذهم ويحفظهم، من موقع ربوبيته التي تستدعي أن يكون هناك رعاية مباشرة، من موقع المحبة والحكمة، ومن موقع التدبير، وإرادة التكامل، والتنامي في صفته الإنسانية والبشرية.

ويريد أن يحفظهم ويعيذهم من حيث كونه ملكاً، مهيمناً، وحاكماً، يملك القدرة المادية والمعنوية، لأن لديه أدوات الملك، ولديه هيبته وسلطته.

أما الألوهية، فهي تعني جامعيته لكل صفات الكمال والجلال، فهو

---

(١) الآية ٢ من سورة الناس.

(٢) الآية ٣ من سورة الناس.

تعالى حي، قيوم، غني بذاته، قادر، حكيم، عليم، رحيم الخ.. بذاته أيضاً.

ومن يكون كذلك، فإنه هو الذي يعيذ من يلجأ إليه على الحقيقة.

لماذا بدون حرف عطف؟:

ويلاحظ: أنه تعالى قال: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ ولم يعطفها بواسطة حرف عطف، فلم يقل: «وملك»، «وإله».

ولعل ذلك: لأنه تعالى أراد أن يفهمنا: أن ثمة استقلالية في التأثير، في إعاذة المستعيذ به؛ فهو تعالى يعيذه من موقع ربوبيته بصورة مستقلة، ثم هو يعيذه من موقع سلطته، وحاكميته، بصورة مستقلة أيضاً، ثم من موقع ألوهيته كذلك، وذلك في عين وحدة الذات الإلهية مع صفاتها، وفي عين وحدة الصفات أيضاً.. فهو تعالى ملك من حيث هو إله، وهو إله من حيث هو عالم.. وهكذا ولا يعارض ذلك كونه تعالى يعيذ من إستعاذ به بصورة مستقلة في كل صفة من صفاته.

وخلاصة الأمر: أن الإنسان إنما يستعيذ من أجل أن يحفظ نفسه مما يخاف منه.. والمالك، والمهيمن، والمسيطر هو الأولى والأحق بأن يستعاذ به؛ لأنه يملك أن يعيذ من استعاذ به من موقع هيمنته، وسلطته، وحاكميته.

وهذا سبب مستقل في العوذ غير سببية الربوبية له، وغير سببية الألوهية.

ولو أتى بالواو، فلربما يتخيل أن هناك تشريكاً في السببية، بمعنى أن الربوبية جزء سبب، والمالكية جزء سبب آخر، يضاف إليه، فيتكامل أحدهما بالآخر، وهما معاً يتكاملان مع مقام الألوهية، ليمكن تحقيق الإعانة للمستعيذ.

بل ربما يتوهم متوهم: أن رب الناس غير ملك الناس وأنه غير إله الناس.

مع أن الأمر ليس كذلك، بل كل من هذه الثلاثة سبب مستقل في التأثير، ولديه القدرة الكافية على ذلك.

لم يقل: مالك الناس:

وأما لماذا قال: ﴿**مَلِكِ النَّاسِ**﴾، ولم يقل: «مالك»، فلأن مجرد كونه مالكاً لا يكفي لتحقيق العوذ، فإن المالك قد لا يكون لديه قدرة على الحفظ والسيطرة، ولا يملك الوسيلة لدفع الطغيان والشر.

تكرار كلمة الناس:

أما تكرار كلمة الناس في الآيات الثلاث، فربما كان أيضاً من أجل أن يظهر عموم الألوهية، والربوبية، والملك. وأنها لا تنحصر بجهة دون جهة.

وقد قدمنا حين الحديث عن سبب العدول عن كلمة «ربي» إلى كلمة ﴿..**رَبِّ النَّاسِ**﴾ ما يفيد في تفسير العدول عن كلمة ملكي، أو إلهي، أو ربّي إلى كلمة: ﴿**مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ**﴾[1]، فراجع.

لماذا لم يقل: رب العالمين؟:

ثم إنه قال: ﴿**مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ**﴾ ولم يقل: «ملك العالمين» مع العلم: أن كلمة العالمين أوسع وأشمل، خاصة وأن الإستعاذة هي من الجِنَّة والناس، التي توحي بإتساع الخطر الذي يريد التعوُّذ منه، حتى إنه يشمل

---

(١) الآيتان ٣ و ٤ من سورة الناس.

الإنس والجن.

فلعل سبب ذلك هو: أن المراد بالعالمين ليس هو العوالم المختلفة، مثل: عالم الطير، وعالم النبات، وعالم الجماد، وعالم الإنسان، وعالم الحيوان؛ ليكون له شمولية متميزة عن كلمة الناس، وإنما هي خاصة بعقلاء البشر، دون غيرهم.

وقد قال تعالى: ﴿**وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾(١)؛ فالمراد بالعالمين: الجماعات العظيمة من الناس، الذين تجمعهم رابطة معينة مثل رابطة اللغة، أو الجغرافيا، أو العرق، أو غير ذلك.

وقد ذكرنا: أن كلمة الناس قد أريد بها الإشارة إلى خصوصية الإنسانية في هذا المخلوق، وإلى مؤهلاته المميزة له في هذا الإتجاه، بما له من عقل، ومشاعر، وأحاسيس، وعواطف. وليس المقصود مجرد الحديث عن الأشخاص والجماعات، بما هم لحم، ودم، وبشر، بغض النظر عن خصوصياتهم الإنسانية.

ولذا لم يقل: قل أعوذ برب البشر، لأنه لا يريد أن يتحدث عن هذا المخلوق بصفته البشرية التي تعني أنه مجرد موجود مادي له بشرة بادية.

وأما لماذا لم يقل: «قل أعوذ برب الجِنَّة والناس». فلعله من أجل أنه يراد للحديث أن يجرى على وفق السجية والفطرة، حيث يساق الإنسان إلى الحديث عما هو قريب منه، ومألوف لديه وله إرتباط به.

والخلاصة: أن كلمة: ﴿**النَّاسِ**﴾ قادرة على الإيحاء بخصوصيات، وميّزات

---

(١) الآية ٤٧ من سورة البقرة.

مقصودة بالإفهام. وسائر التعابير الأخرى غير قادرة على الإيحاء بها.

لم يقل: برب الإنسان:

وأما لماذا لم يقل: «قل أعوذ برب الإنسان، ملك الإنسان، إله الإنسان»، فلكي يشير إلى أن المقصود هو الحديث عن الإنسان بما هو متجسد ماثل للعيان، لا عن الطبيعة الإنسانية.

إنه يريد الإشارة إلى الإنسان بما هو فرد، يتعاطى معه بما له من صفةٍ إنسانية، وبما هو محتاج إلى من يلجأ إليه ليتعوَّذ به، فيعيذه، ويحفظه.

أما الطبيعة الإنسانية فقد لا يكون لها تجسُّد على صفحة الوجود، حتى ولو في ضمن فرد واحد فلا تصل النوبة إلى المستعيذ والمعيذ..

﴿رَبِّ النَّاسِ﴾:

وقد تقدم: أن «الرب» هو الذي يدبر أمور مربوبه، ويدفع عنه كل ما يوجب خللاً في كماله، أو نقصاً في أي شأن من شؤون حياته..

فإذا كان رباً للناس جميعاً؛ فإنه يملك القدرة على أن يدفع الغوائل عنهم جميعاً، وعلى أن يجلب لهم جميعاً المنافع؛ باعتبار أن ربوبيته للجميع تقتضي قدرته على إيصال النفع للجميع.. فتكون كلمة ﴿**النَّاسِ**﴾ بمثابة الإلماح والإشارة إلى الدليل المقنع والشاهد الحي، الذي من شأنه أن يبعث الطمأنينة في نفس المستعيذ؛ فهو من قبيل الدعوى مع دليلها، باعتبار أن من يتصدى للحفظ وللتربية لا بد أن يكون دائراً مدار إحتمالين اثنين:

أحدهما: أن يكون قادراً على أن يحفظ من يربيه مطلقاً.

الثاني: أن يكون لديه قدرة في بعض الأحيان، أو الحالات، أو الجهات. مع قصور في نواح وحالات وجهات أخرى في الإمكانات الفكرية، أو المادية، أو في القدرات الرادعة للغير، والحافظة للمربوب.

ولكن حينما يتأكد للمربوب أن هذا الرب ربّ للناس جميعاً، وأنه ملك لهم جميعاً، وأنه إله لهم جميعاً، فإن ذلك يعني أنه يملك قدرة مطلقة يستطيع من خلالها أن يرعى هؤلاء جميعاً.

وهذا ما يفسِّر لنا سبب جعل الله «عز وجل» في هذه السورة العوذ للفرد بمن هو رب للناس جميعاً..

ومن جهة ثانية.. إن هذه الربوبية إذا استبطنت الرعاية والحكمة، والعلاقة والمحبة والعاطفة، وإرادة التكامل للمربوب، وإرادة الحفظ من أي شيء يمكن له أن يسيء إلى هذا الوجود وينقص من كمالاته؛ فكلمة رب الناس هي أقرب الأشياء إلى المستعيذ، بحسب ما لديه من آمال وتوقعات؛ فيندفع إلى الاستعاذة بالرب أولاً؛ لأنه هو الأقرب إليه، والأحرص عليه.

﴿مَلِكِ النَّاسِ ★ إِلَهِ النَّاسِ﴾:

والمِلك سبب آخر للحفظ. وهو سبب مستقل في ذلك، فالمِلك يملك قدرات مستوعبة، ومنبسطة على الناس كلهم. ومن يكون كذلك، فهو قادر بهيمنته أن يحميهم، وبسلطته أن يحفظهم، وبقدراته وإمكاناته أن يردّ عنهم كل ما يريد أن ينتقص من وجودهم، أو يسيء إلى حياتهم.

وكلمة ﴿النَّاسِ﴾ تصبح بمثابة الدليل على هذا المدعى. وهذا ما يجعل المستعيذ يطمئن للإستجابة.

لكن كلمة ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ تفقد الإشارة إلى خصوصية الحرص على تكامل المستعيذ، وتفقد أيضاً خصوصية المحبة فيما يرتبط بالحفظ والرعاية. وتشير فقط إلى الحفظ من موقع السلطان، والهيبة، والقوة.

ومن كل ما ذكرناه يتضح أن كلمة ﴿..رَبِّ النَّاسِ﴾ هي الأقرب إلى الفطرة، ولذلك بدأ بها.

ثم هو ـ أي المستعيذ ـ حين يريد أن يطرق كل باب، ويستعين بكل جهة تستطيع أن تعينه وتعيذه، فإنه بعد أن يستعيذ بربه قد يجد في نفسه ما يمنعه من الإستعاذة؛ بسبب عدم رعايته لحقه؛ أو غير ذلك من أسباب، فإنه يلتجئ إلى من يملك القوة والسلطان ليستعيذ به؛ فيقول: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾.

ثم ينتقل للإستعاذة بإله الناس، لأن الألوهية تستبطن استجماع صفات الكمال، والجلال، والجمال.. لاسيما إذا كانت ألوهيته للناس جميعاً، مما يعني أنها ألوهية حقيقية.

ولعل هذه الجامعية للصفات هي السبب في أنه تعالى لم يقل هنا: «معبود الناس» بل قال: ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ فإن الألوهية تستبطن كونه حياً، قيوماً، عالماً، قادراً، وكونه رازقاً، رؤوفاً، رحيماً الخ.. وكونه غير عاجز، ولا ناقص، ولا جاهل، ولا ظالم الخ..

فهو يعيذ إذاً بمقتضى ذاته، ومن موقع ألوهيته. فالألوهية هي الوصف والمعنى الأتم، فإن هذا الإله رب من موقع رحمانيته، ورحيميته، ورازقيته، وخالقيته، وعلمه، وحكمته.. وهذا الإله مَلِك من حيث قدرته، وهيبته، وعظمته، وسلطانه، وتدبيره..

فكلمة: ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ تَستبطن في الحقيقة كونه رباً، وكونه ملكاً.

و ثمة فرق آخر:

وثمة فرق آخر بين ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ وبين ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ وبين﴿..رَبِّ النَّاسِ﴾، وهو: أن الإله هو المعبود الذي لا بد من الإنقياد والتعبد له. ولا بد من الإرتباط به ارتباط المألوه بالإله ويكون له الخضوع والتسليم المطلق، في كل الحالات والشؤون.

أما الملك فإن التسليم له إنما هو من موقع الهيبة، والحاكمية، والعظمة، والسلطة. ولا يستبطن الدلالة على أن هذا المِلك يملك ذاته، أو يملِك قوته، وحياته، أو يملك عواطفه ومشاعره، أو يخلق، ويرزق، ويحيي ويميت، وأن هذا الملك يملك هذه الصفات بذاته دون الإستعاذة بغيره كإستعانة الملك بالجنود والحرس. وغير ذلك.

أما الألوهية الحقيقية للناس جميعاً، فهي تستبطن الدلالة على ذلك كله، الأمر الذي يعني أن تصير العلاقة بين هذا المعيذ وبين المعاذ علاقة إله ومألوه، لا بد فيها من إخلاص العبادة وتجسيد العبودية لذلك الإله، إذ إنه حين يريد أن يستعيذ بالمِلك، فلا بد من أن يكون مؤدياً لحقوقه، من حيث كونه ملكاً، وسلطاناً، وحاكماً.

وإذا أراد أن يستعيذ بالرب، فعليه أن يكون مؤدياً لحق الربوبية، شاكراً لها، من حيث كونها سبباً في أنه يربيه، ويحفظه، ويرعاه، من موقع الحكمة، والتدبير، والمحبة، والتفضل.

فالعلاقة مع الإله تختلف عن غيرها؛ لأنها علاقة خالق ومخلوق، ورب

ومربوب، وإله ومألوه. فهي أعمق من علاقة الربوبية، ومن علاقة الملكية، والسلطان.

إن العلاقة مع الإله تشمل كل جهات وجود الإنسان. من حيث تكوينه، ومن حيث خلقته، ومن حيث تسخير كل ما في هذا الكون من أجله.

فإذا كان المطلوب منه العرفان بالجميل، والشكر للرعاية والتفضل للرب، أو أداء حق السلطان وحفظ هيبته وعظمته، ليكون هذا الإنسان في موقع يستحق فيه أن يستجاب له دعاءه؛ فإن المطلوب منه مع الألوهية لكي تتحقق الاستجابة له: أن يعامله على أنه إله ومعبود. وهذا يستبطن نوعاً من العلاقة معه أرسخ وأرقى.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(١). والعبادة تعني: انسلاخ الإنسان من نفسه والفناء في معبوده. وأن يرسم كل حياته وفق إرادته، ورضاه. وكما قالت الحوراء زينب: «رضى الله رضانا أهل البيت»، فلا تكون له مشيئة سوى مشيئته: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾(٢).

---

(١) الآية ٥٦ من سورة الذاريات.

(٢) الآية ٣٠ من سورة الإنسان.

الفصل الرابع

مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ..

ما هو الشر؟!:

إن من الواضح: أن الإستعاذة الواردة في الآيات لم تكن من ذات الوسواس الخناس، وإنما كانت من الشر الآتي من قبله، فما هو هذا الشر الذي تحدثت عنه الآية؟!

إن الحقيقة هي: أن الشر هو النقص الحاصل في ما من شأنه أن يكون كاملاً، فالصحة مثلاً هي كمال من حيثية معينة. والمرض أمر عارض. يعني الإخلال بتلك الصحة والنقصان فيها، وهذا نوع من الشر.

فالشر هو معنى يظهر من نسبة الشيء الناقص الموجود بالفعل إلى شيء آخر أتم منه؛ فإذا ظهر أنه ليس على حدّه في كماله اعتبروا هذا نقصاً.

وبما أن من الواضح أن ليس كل نقص شراً، بل لا بد له حتى يكون كذلك من أن يكون هذا الكمال من الأمور التي يندفع إليها الإنسان من موقع الحاجة إليها، لأن فقدها يوجب عروض نقص وخلل في حياته، وفي سعادته، وكماله، فلو فرضنا أن الأرض المستوية أصبحت ـ بسبب الزلزال ـ ذات تلال وهضاب، فإن هذا وإن كان خلاف الحالة التي كانت قائمة قبل الزلزال، لكنه ليس شراً، حتى لو فرض أنه أطلق عليه أنه نقص لأجل بعض الإعتبارات، لأنه لا

يدخل في دائرة الطموحات والاهتمامات، ولا هو محل للإندفاع الإنساني الذي يكون لرفع حاجة الإنسان، وسد نقائصه. وليس له دور في سعادته، ولا يوجب وجوده متاعب، ولا يتسبب بشقاء له.

أما لو أن هذا الزلزال أتلف بعض ما يرتبط بحياة الإنسان، وسعادته وراحته، كبعض الأشجار المثمرة والمفيدة، أو المزروعات، أو الحيوانات التي يحتاجها، أو ما إلى ذلك، فإن هذا يعتبر شراً لأنه أوجب خللاً في سعادة الإنسان وفي كمالاته، إلا إذا كان تلف هذه الأشجار أو النباتات بالذات غير داخل في دائرة الشر، إذا لم يكن لها دور في إسعاد هذا الإنسان، وفي حياته الحاضرة أو المستقبلية.

فالشيء الواحد قد يكون شراً إذا لوحظت فيه إضافة معينة، وقد لا يكون شراً إذا لوحظت فيه إضافة أخرى..

﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾:

إن المقصود بـ ﴿الْوَسْوَاسِ﴾ هو: الشيطان. والحديث عن الشيطان هنا لم يكن بذكر اسمه، بل تحدث عنه بما له من صفات، حيث قال: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾[1]، مصرحاً بخصوصيته التي تمس واقع الإنسان بصورة مباشرة، وهي كونه وسواساً، وكونه خناساً.

وقد كانت الاستعاذة من شر الوسواس، لا من نفس الوسواس، ليكون تنصيصاً على الأمر الذي يحرص الإنسان على إبعاده عن نفسه، وهو يستتبع

---

(١) الآية ٤ من سورة الناس.

المزيد من الحرص على الاستجابة في مقام الدعاء والطلب، لأنه يجسد له الخطر أمام عينيه.

كما أن هذا يتطلب من الإنسان المزيد من الاندفاع في الطاعة التي تهيئ أجواء الإستجابة عند من يدعوه.

والخلاصة: أن الداعي، حين يدعو، فإنه يجري في تعابيره على نقل الصورة من عالم الشعور إلى عالم الحس، فيتوخى من خلال قوله: **مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ** الإيحاء بعلة الاستعاذة، وتجسيد الخطر الذي يواجهه. كما أن فيه أيضاً تحضيضاً للمدعو على الاستجابة، ومد يد العون؛ لما فيه من التصريح الذي يجعل المدعو ـ بزعمه ـ يتحسس خطورة الأمر أكثر مما لو قال له الداعي: ساعدني على فلان؛ إذ ربما تكون المشكلة أمراً تافهاً لا يستحق هذا الاهتمام؛ فإذا جسد له الخطر، وجعله يتلمسه، فإن ذلك يثير عادة رحمته، وغيرته وحميته، أكثر مما لو ترك الأمر في حالة مبهمة وغائمة.

ونود أن ننبه القارئ الكريم إلى أننا نورد هذه التعابير لنشير بها بصورة تقريبية إلى الحالة المفترضة حين يكون المدعو هو غير الله سبحانه..

أما بالنسبة له تعالى.. فهو منزه عن أمثال هذه التعابير.

ونعتقد: أن ذلك غني عن الإيضاح والشرح.

اللغة القرآنية:

وقد جاء الحديث الإلهي هنا منسجماً مع حقيقة: أن الإنسان إنما يتعامل مع الأمور بعفويته، ومحدوديته، ونقصه، وبلغته البشرية، وأساليبه، ومن موقعه

هو، وفي حدود مدركاته وآفاقه، ويخاطب الله سبحانه وتعالى بتعابيره هو. وفي حدود إدراكاته وآفاقه.. وإلا فإن الله سبحانه عليم بحالهم، رؤوف رحيم بهم، ولا يريد للإنسان أن يتعرض لأي أذى، بل هو يريد أن يرى نعمه سابغةً عليه، ولكنه يريد منه أيضاً أن يشعر بحاجته إليه، وأن يتوجه إلى رحابه، فيعبده، ويدعوه، ويخلص له في الدعاء والعبادة، وأن يجهر بحاجاته له، ويعلن أمامه بالخطر الذي يتهدده؛ فإن ذلك من الأساليب التربوية له، ومن أسباب هدايته، ومن طرق التحضيض على الاستجابة، والإلحاح على الرحمة والعفو.

فاتضح: أن التصريح بكلمة «شر» أسلوب إنساني متداول في مقام التخاطب البشري. والله «عز وجل» لا يمنع الإنسان من ممارسة أساليبه ولغته، لأنه يريد له أن يصل إليه بوسائله، وأن يجسد مشاعره، ليكون أكثر إخلاصاً وتوجهاً في دعائه له، وفي طلبه منه.

فكلمة ﴿مِنْ شَرِّ﴾ تستدرج هذه المحبة والرحمة الإلهية، لتكون إلى جانب هذا الإنسان في مواجهة الشر الذي يستهدف دعوته إلى حفظ نِعَم هذا الخالق الرحيم والكريم من السوء والشر، والعدوان، فيستعيذ هذا المخلوق الضعيف بالرب المِلك الإله، ليحفظ هذه النِّعم كلها، وخصوصاً نِعمة الهداية، ونعمة الاستقامة، ونعمة الفطرة الصافية، ونعمة العقل السليم الخ..

﴿الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾:

وحين تحدثت الآية عن صفات الشيطان: ﴿الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾، فلكي تسجل تحذيراً مستنداً إلى الدليل، من أن الشيطان لا يواجه الإنسان مباشرة،

وإنما يأتيه بصورة وسواس خناس في عمل دائب، نذر له كل وجوده، يهدف إلى تقويض سعادته بطريق الخداع والتزيين، بعد أن أدرك أنه لا يملك أن يجبره على فعل ما يريد. فلجأ إلى طريقة الإلقاء في خاطر الإنسان وفي روعه أمراً يزينه له ويشوقه إليه. وذلك بأن يجعل ذلك الخاطر الذي ألقاه إليه بين الخيارات الأخرى، ثم هو من خلال الزينة التي ألقاها عليه يرجحه عليها، ثم يشتاق إليه الإنسان، ثم يتحرك نحوه.

فإحداث الخاطر في النفس هو في حد ذاته عدوان وشر شيطاني، قد صان الله الأنبياء والأوصياء عن أن يحدث في نفوسهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾(١)، وقوله تعالى عن لسان إبليس: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾(٢).

والمخلص هو الصافي الذي لا تشوبه شائبة.

فعباد الله لا مجال لأن تمر هذه الخواطر في أوهامهم، ولا تجد لها سبيلاً إلى قلوبهم وعقولهم.

وهذا يعطينا صورة عن عصمة الأنبياء والأوصياء الذين تنفر طباعهم، وتأبى عقولهم مقاربة الشرور والأهواء، بصورة قاطعة ونهائية. فإذا قال الله تعالى عن الغيبة: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾(٣)،

---

(١) الآية ٩٩ من سورة النحل.

(٢) الآيتان٨٢ و ٨٣ من سورة ص.

(٣) الآية ١٢ من سورة الحجرات.

فإن النبي أو الولي المعصوم يكره الغيبة كما يكره وينفر من أكل لحم أخيه ميتاً.

بل إن هذا الإنسان المؤمن العادي الذي ليس بنبي ولا وصي، يمتلك درجة العصمة عن ارتكاب جملة من الأمور فهو معصوم عن أن يقتل نفسه، وعن أن يقتل ولده أو أخاه، وعن أكل الجيف، وعن أكل لحم الخنزير، أو الديدان. والمؤمن معصوم عن ترك الصلاة، والصيام، وعن الكذب، والنميمة، والخيانة، والسرقة، وما إلى ذلك..

بل هو يبغض ذلك وينفر منه، ولا يفكر فيه. بل هو ـ عادة ـ لا يسمح لها أن تدخل في وهمه وخياله، حتى إذا خطرت بعض مفرداتها على باله، فإن ذلك ينعكس سلباً على حالته الجسدية إلى درجة أنه يتقيأ ما في أحشائه لشدة كراهيته لها، مع أنه مجرد تخيل لا واقع وراءه.

وكذلك الحال حين تخطر على باله بعض الأمور المحبوبة له، فإن ذلك سيحدث تغيرات جسدية من نوع آخر، وفي الاتجاه المعاكس.

والخلاصة: أننا نجد هذا الإنسان يقف موقف الممانعة والرفض لبعض الخواطر، حتى إذا جاءت قسراً، فإنه يرفضها حتى جسدياً. بل هو يكاد يصعق أو يتقيأ لو سمع بها.

ولأجل ذلك نجد الإسلام يحظِّر على الإنسان بعض الخواطر. كما أنه يوجب عليه أنواعاً منها. وأمثلة هذا وذاك واضحة تكاد لا تخفى.

ومن كل ذلك نعرف: سرّ عصمة الأنبياء والأولياء عن ممارسة كل الشرور، بل هم معصومون حتى عن التفكير فيها، ما دام أنهم واقفون على درجة قبحها وسوئها، وإن كانت تخفى على الإنسان العادي.

فهي عندهم كأكل الميتة بالنسبة للناس العاديين. فكما ينفر الإنسان من ذلك، كذلك الأنبياء والأولياء بالنسبة لجميع الشرور. ولأجل ذلك لا يمر خاطرها في ذهن النبي، ولا تدخل على قلبه أو عقله، ولا يحدِّث نفسه بإرتكابها إطلاقاً.

فاتضح: أن دخول الشيطان، ولو بدرجة أن يحدث خاطراً للنبي، أو الوصي المعصوم غير ممكن ولا معقول.

لكن ذلك لا يعني أن المعصوم لا يتمكن من تصور الشرور في سياق الزجر للناس عنها، وبيان سلبيات ارتكابها، فإن النبي والولي والمؤمن لا يتخيل السوء ليكون جزءاً من تفكيره، أو ليدخل في خواطره، ومشاعره، وأحاسيسه. أو ليصبح جزءاً من شخصيته، فيرسم له حركته، ويؤثر على مشاعره، الأمر الذي يستتبع تزيين الشيطان له، وتبرير إرتكابه لها، والموازنة بينها وبين الخيارات الأخرى، ثم الترجيح، ثم الشوق، والحركة نحو تذليل الموانع، وتهيئة أجواء إرتكاب الحرام.

وإنما يتصورها كمفهوم يريد أن يجعله في قوالبه اللفظية ليعبّر عنه؛ ولأجل ذلك، فإن الله «عز وجل» قد تحدث عن الكافرين، وعن الكفر والضلال، وعن قتل النفس، والغيبة وغير ذلك.

إبليس وجنوده:

إن لإبليس جنوداً يرسلهم على الناس، لإضلالهم وصدِّهم عن سبيل الله. وهو يستبدُّ بهم حتى يصل الأمر به إلى درجة الإحتناك لهم وإلجامهم

ليقودهم حيث يشاء.

قال تعالى: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ..﴾[١]، لكن لا بصورة جبرية، بل هي قيادة من موقع التزيين، والإيحاء، والخداع، الذي هو أول سقوط هذا الإنسان عن مراتب الكمال. حيث تستمر محاولات الشيطان حتى يصبح عقل الإنسان، وملكات الخير فيه ملجومة وغير قادرة على الحركة والتصرف. بل ربما يصل الأمر إلى درجة أن يجعله من جنوده، وما أكثرهم.

وخلاصة الأمر: إن الشيطان لا يوصل الشر والنقص إلى الإنسان بشكل مباشر، لكنه يحدث خاطراً في النفس ويجعل الأمر السيئ في دائرة خواطره ومشاعره، وذلك بصورة ذكية وخفية، حتى يخيّل إليه أنها من بنات أفكاره على طريقة أحلام اليقظة ـ إن صح التعبير ـ حتى إذا إستدرجه إلى فعل هذا الشر أنزله عن مراتب الكمال، فالشيطان لا يجبر الإنسان على السوء، وإنما يطرح له الفكرة ويزينها.

لا بد من الحذر:

ولن يستطيع الإنسان التخلص من هذا الكيد الشيطاني إلا بالمبادرة إلى وضع الموانع والعراقيل، من خلال الإلتزام بالتعاليم الإلهية، وأعمال القرب لله من صلاة، وصوم، وتسبيح، ودعاء، ومراقبة حتى لا يستطيع الشيطان الإقتراب منه.

ولأجل أن الإنسان لا يصل إلى درجة الأنبياء والأوصياء الذين لديهم

---

(١) الآية ٦٢ من سورة الإسراء.

سيطرة كاملة على نفوسهم، بحيث لا يستطيع الشيطان أن يقترب منهم.. ولوجود حصون قوية، وموانع صعبة تكونت من خلال معرفتهم بحقائق ما يدعوهم إليه؛ فكرهتها نفوسهم الصافية، وأرواحهم الطاهرة وعافتها، ورفضتها عقولهم ونبذتها. وكان البديل عنها حب الله «عز وجل»، وحب الخير، وحب الآخرة.

نعم ـ من أجل ذلك كله ـ يتحتم على هذا الإنسان أن يتأسى بالأنبياء والأولياء، وأن لا يتراخى في أمر التحصين والصيانة لنفسه، فإن الشيطان يقترب إليه بمجرد غفلته وبعده عن الله «عز وجل»، وسيحاول باستمرار أن يواصل زحفه نحوه بصورة خادعة وماكرة إلى أن يصل إلى قلبه، فيلقي فيه الأوهام والأضاليل.. فيتخيل هذا الإنسان الضعيف أنها بنات أفكاره هو، فيتبنّاها، ويحرص عليها، ويحضنها، حتى تصبح جزءاً من مشاعره، وإشتياقاته، وإنفعالاته، وأهوائه. ولا يلتفت إلى أن الشيطان هو الذي ألقاها في خاطره.

وهذا الشيطان يبقى مع الإنسان في حياته كلها إلى يوم القيامة إلى أن يورده النار. ثم يقول له: ﴿..**وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي**..﴾!![1].

الوسواس مصدر أو اسم مصدر:

يقول اللغويون:

---

(١) الآية ٢٢ من سورة إبراهيم.

هناك مصدر، مثل: طهارة وغَسل ـ بالفتح ـ.

وهناك اسم مصدر مثل: الطهر والغُسل ـ بضم الطاء والغين ـ.

والمصدر مثل: غسل ـ بالفتح ـ يدل على طبيعة الحدث الذي هو عبارة عن فعل وحركة من البداية إلى النهاية.

أما الغُسل ـ بالضم ـ فهو اسم هذا الأثر الناشئ عن ذلك الحدث وعن تلك الحركة.

ومثل ذلك الطهارة، فإنها اسم للحدث ولفعل التطهير. وهي المصدر.

والطُهر ـ بالضم ـ هو: الشيء الحاصل من المصدر، وهو ما يتحقق بعد حصول الطهارة. وهذا هو اسم المصدر.

وثمة فروقات عديدة بين المصدر واسم المصدر لا حاجة الآن للدخول في تفاصيلها. غير أننا بالنسبة لكلمة ﴿..**وَسْوَاسِ**﴾ نقول:

إن كلمة ﴿**وَسْوَاسِ**﴾ مثل كلمة «قسطاس» ونحوها مما يعرف بالمضاعف، ومنه: زِلزال ـ بالكسر ـ وزَلزال ـ بالفتح ـ والأولى مصدر، والثانية اسم مصدر؛ لأن الزَّلزال ـ بالفتح ـ هو ما يحصل من الزلزال ـ بالكسر ـ كفعل الطهارة الذي ينشأ عند الطهر.

ومعنى ذلك: أن علينا أن نعتبر كلمة الوسواس اسم مصدر.

ولكن ملاحظة معناها يعطينا: أنها قد لوحظ فيها وصفيتها. وذلك يجعلها أقرب إلى معنى المصدر نفسه.

من شر الوسواس، لا من شر الوسوسة:

ثم إنه تعالى لم يقل: «من شر الوسوسة»، وإنما قال: ﴿**مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ**﴾،

فنسب الشر للفاعل، وهو الشخص الذي وصفه بـ ﴿**الْوَسْوَاسِ**﴾، لأجل الإشعار بعلة الشر، وبمصدره، وفاعله في آن واحد.

فمرة تقول: اقتل زيداً، أو عمرواً، أو بكراً.

ومرة تقول: اقتلوا القاتل.

فإن القتل، وإن كان يقع على نفس الشخص، لكن عندما تحدثت عنه بوصف كونه قاتلاً؛ فإنك تكون قد ألمحت إلى أن علة حكمك عليه بالقتل هو كونه قاتلاً. وكذلك الحال في قوله تعالى: ﴿**وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا**﴾(١).

هل الوسواس خاص بفريق دون فريق؟!:

ولكن هل كلمة: ﴿**الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ**﴾ تختص بخطاب المذكرين، أو تشمل المذكر والمؤنث على حد سواء؟

والجواب:

أننا نلاحظ: أن القرآن ـ باستثناء موارد قليلة ـ يتحدث بالصيغ الخاصة بالمذكرين، مثل: يعقلون.. يتقون.. هدى للمتقين.. يتفكرون.. خالدون.. ينظرون.. وكذلك: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾، وغير ذلك كثير جداً..

مع أن هذه الموارد تعم الرجال والنساء على حد سواء.

وسبب ذلك هو: أن كلمة المتقين والظالمين ونحوها وصف يستند إلى

---

(١) الآية ٣٨ من سورة المائدة.

موصوف؛ فلا بد إذن من ملاحظة طبيعة الموصوف.

فالموصوف الذي تقدره له، هو الذي يجري الوصف ـ بالتقوى مثلاً ـ عليه، لأن معنى كلمة المتقين هو الذات التي لها صفة التقوى، أو الأشخاص المتقون، أو الناس أو الرجال المتقون.. وهكذا. فالصفة تابعة لموصوفها. والموصوف هنا يشمل الذكور والإناث على حد سواء، لأن كلمة شخص، وكلمة الناس تنطبق على الرجل وعلى المرأة، وهكذا الحال في سائر الصيغ مثل: يا أيها الذين آمنوا، أي يا أيها الناس، أو الرجال، أو الأشخاص الذين آمنوا. فالوصف تابع لموصوفه الذي يعرف نوعه وسنخه من سياق الكلام.

فقوله: ﴿**مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ**﴾ ليس خاصاً بالذكور ولا بالإناث؛ إذ يلاحظ فيه الموصوف الذي تقدره حسب ما يقتضيه المقام، وسياق الكلام؛ فتقدر كلمة الشخص، أو المخلوق، أو الموجود، أو أي شيء آخر ينسجم مع السياق.

فهي ككلمة القاتل، والضارب، والعالم، التي يراد بها الشخص القاتل، والضارب، والعالم.

فالوسواس إذن لا تختص بذكر ولا بأنثى، ولا بكبير أو صغير. وقد أتى بوصف الوسوسة ليشير به إلى علة لزوم الاستعاذة أو الأمر بها، لأن المستعاذ منه يتسبب بحصول شر يصل إلينا من خلال وسوسته.

وسواس صيغة مبالغة أم مصدر؟!:

قد يقول بعضهم: إن كلمة ﴿..**وَسْوَاسِ**﴾ ليست من قبيل الوصف وإنما هي صيغة مبالغة مثل: «فعال».

قال تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ (١)، وغير ذلك.

وهذا هو الملائم لصيغة خنّاس حيث إنها صيغة مبالغة.

غير أن ثمة من يقول: إن كلمة: ﴿..وَسْوَاسِ﴾ مصدر؛ فيكون ما نحن فيه من قبيل قولك: زيد عدلٌ، حيث لا يصح وصف الذات بالمصدر إلا بنوع من الإدعاء، لأن كلمة عدل مصدر؛ فهي اسم معنى. وكلمة زيد اسم عين. ولا ارتباط بين هذين الأمرين إلا بادعاء أن زيداً هو عين العدل، لشدة تلبسه به، وممارسته له، حتى اقترنا في الذهن.

فإذا قلت: عدل تبادر زيد إلى الذهن، كما أنك حين تقول: إمام يتبادر إلى ذهنك الإمام علي «عليه السلام».

وحين تقول: كرم يتبادر إلى الذهن حاتم، حتى كأنه مرادف له.

فيصح أن تقول: زيد عدل كما تقول: الأسد قوة ـ أي محض القوة ـ فكأنما تحولت القوة وتجسدت بالأسد، والأمر فيما نحن فيه كذلك، حيث تصح دعوى أن هذا المخلوق الشيطاني قد تجسدت فيه الوسوسة إلى حد أنها صارت هي الشيطان، والشيطان هو الوسوسة، مثل: العدل هو فلان، وفلان هو العدل، والكرم هو حاتم، وحاتم هو الكرم.. الخ.. حيث يدعى: أن هذا الموصوف قد خرج عن طبيعته وصار هو نفس تلك الصفة.

وهذا بالطبع يستدعي المزيد من الحذر من هذا المخلوق، والمزيد من الإستعاذة منه؛ لأن المبالغة في موضوع الوسوسة تستدعي المبالغة في الحذر

---

(١) الآية ١٦ من سورة البروج.

منها. ولعله لأجل ذلك استعاذ منه ثلاث مرات على النحو الذي قدمناه..

وكلمة ﴿الْخَنَّاسِ﴾ تصلح قرينة على ذلك، لأن معناها: الكثير الخُنوس، أي كثير التردد ذهاباً وإياباً، حيث جاءت هذه الكلمة بصيغة المبالغة، مثل: قتّال، وفعال.

ولعل هذا ما يفسر لنا نسبة الشر إليه على سبيل الإطلاق، على أساس أن الشر يأتي من قبله بسبب تمحضه في الوسوسة وصيرورته عينها.

فظهر مما تقدم أمران:

الأمر الأول: أن يراد به تعليل ثبوت الحكم لموضوعه؛ فهو مثل: أقتل القاتل، يعني: بعلة قتله أقتله. اقطع يد السارق، أي بسبب سرقته. اجلد الزاني، أي لزناه. أدِّب المذنب، أي بسبب ذنبه. أكرم العالم، أي لأجل علمه. صلوا خلف العادل، أي لإتصافه بالعدالة..

الأمر الثاني: فهو إرادة المبالغة وذلك بطريقين:

الأول: أن يقال: إن كلمة وسواس هي ـ في نفسها ـ صيغة مبالغة.

الثاني: أن يقال: إنها مصدر محمول على الذات؛ بادِّعاء أن هذا صار من أفراد ذاك، على غرار زيد عدل، حيث يراد من هذه المبالغة بيان خطورة الأمر فيما يرتبط بوصول الشر إلينا من قبل هذه الذات الشيطانية، من خلال هذه الوسوسة..

معنى الوسوسة:

بقي أن نشير إلى أن الوسوسة هي الكلام الخفي الذي لا يظهر معه

الصوت، فيُلقى في روع الإنسان شيء بصورة خفية، فيحس به وكأنه يحدث نفسه به بدون صوت.

﴿الْخَنَّاسِ﴾:

الخناس: يحتمل فيها معنيان:

الأول: أنه الذي يظهر بعد الخفاء. والخفاء مقدم على الظهور.

الثاني: ما دلت عليه الروايات، من أن الخنوس هو الرجوع، فإن العبد إذا ذكر الله تعالى خنس الشيطان.

فالخنوس على هذا هو الخفاء بعد الظهور، على عكس المعنى الأول.

ومهما يكن من أمر، فإن هذا الخفاء تارة يكون في الذات الشيطانية، كأن يكون من الجن، فلا يراه الناس.

وتارة يكون الخفاء في الفعل الشيطاني؛ فلا يلتفت الإنسان إلى أن ما يحدث به نفسه هو وسواس شيطاني، بل يظن أنه هو الذي يفعله باختياره. مع أن الشيطان هو الذي يحدثه به، ويلقي الخواطر في نفسه.

وقد جاء في بعض الروايات ما يشير إلى أن الخفاء هو في الذات الشيطانية، فإن العبد إذا ذكر الله خنس الشيطان ورجع وتراجع، فإذا غفل عن ذكر الله ظهر. فسمي خناساً لأجل ذلك.

ومن الواضح: أن ظهور الشيطان إنما هو بظهور وسوسته، لأنها هي التي تعبر عن وجوده وتفصح عنه؛ فله إذن نوع ظهور بها، ونوع خفاء؛ لأن الإنسان لا يلتفت إلى الذات الشيطانية مباشرة، فروايات أهل البيت

«عليهم السلام» إذن تشير إلى أن فعل الشيطان يظهره أو فقل يشير إلى وجوده ويتلمسه الإنسان إلى درجة يشعر معها بخصوص الذات الشيطانية امامه وهذا نظير حالة العدالة والورع والتقوى فإنها وإن لم يكن لها تجسد مادي خارجي أو حسب المصطلح «ليس لها ما بازاء في الخارج». إلا أنها من المفاهيم التي تظهر بآثارها الى درجة جعلت وجودها كأنه ظاهر للعيان. وذلك ما أشير إليه في رواية عن الإمام الرضا «عليه السلام» عن آبائه «عليهم السلام»: «من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كملت مروته، وظهرت عدالته ووجبت أخوته، وحرمت غيبته»(١).

والخلاصة: أن الشيطان كان خافياً فإذا وسوس للإنسان، كان ذلك دليلاً وإشارة إلى وجوده وحضوره وظهوره قبل أن يذكر العبد الله، فلما ذكره خنس وتراجع؛ فإذا غفل ظهر من جديد بعد خفاء وهكذا..

وبسبب تكرار محاولاته، وتعدد ظهوره وخفائه، سمي «خناساً»، بصيغة المبالغة المفيدة للكثرة والتكرار.. أو هو خناس من جهة أن كيفية عمله هي كيفية الخنوس والظهور بعد خفاء، أو الخفاء بعد الظهور، على طريقة أن العبد إذا ذكر الله خنس، وإذا نسيه أظهر نفسه، وعاد إليه. أو بمعنى أن عمله يكون خافياً غير ظاهر، وهو مختف عنه بسبب عدم التفاته إليه.

---

(١) بحار الأنوار ج٧٢ ص٢٥٢.

الفصل الخامس :

الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ..

لا تكرار في الآيات:

ويرد سؤال، وهو: أن الله عز وجل قال في أول الأمر: ﴿..**الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ**﴾، ثم عاد مرة أخرى ليقول: ﴿**الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ**﴾[1]، فهل هذا تكرار؟ وما الفائدة من هذه الإعادة يا ترى؟

الجواب:

قد تقدم: أن كلمة ﴿**الْوَسْوَاسِ**﴾ لا يراد بها مجرد الإشارة إلى الذات التي هي موضوع الحكم على غرار قولك: أكرم هذا الجالس. بل هي وصف يراد به الإشارة إلى سبب الأمر بالإستعاذة، فهي من قبيل العدالة، والأبوة والعلم في قولك: صل خلف العادل، وأكرم أباك، وقبِّل يد العالم. فإن لهذه الأوصاف مدخليه في الحكم بصحة الصلاة، و بوجوب الإكرام، وتقبيل اليد.

وقد قلنا أيضاً: إن الإتصاف بالوسواسية إنما جاء نتيجة تكرّر صدور الوسوسة من ذلك المخلوق مرة بعد أخرى، حتى صح إطلاق هذا الوصف عليه، أو حتى مع هذا الإدعاء المرتكز على المبالغة بأن هذا الوصف عين ذلك الموصوف.

---

(١) الآية ٥ من سورة الناس.

ولكن الآيات الكريمة لم تكتف بذلك، بل أرادت التأكيد على أن هذا الوصف المتكرر هو فعل اختياري، يمارسه ذلك المخلوق عن قصد وتصميم وتخطيط. وليس هو مجرد إسم، أو صفة، أو أمر قائم فيه، أو صادقٍ عليه، دون أن يكون له دور في حركته وممارسته، وإنما جاء التعبير به لمجرد إحضاره في الذهن.

ويلاحظ: أن التعبير قد جاء بصيغة الفعل المضارع ﴿يُوَسْوِسُ﴾، لإفادة استمرار صدور ذلك منه في الحال، وفي الاستقبال.

لماذا في صدور الناس؟:

ثم إن الذي يوسوس للناس لا يقتصر على الهمس لهم بالأمر بصورة خفية، بل هو يوسوس في صدورهم. وهذا أدعى إلى الإحساس بالخطر المتمثل فيه. وأدعى إلى التحرز منه والابتعاد عنه، لأنه يلامس منطقة الخطر الحقيقية في كيان الإنسان.

فهي ليست وسوسة خارجية عابرة قد يستمع إليها الإنسان وقد لا يستمع، وقد يستجيب لها وقد لا يستجيب، بل هو يدخل في عمق وجوده، ليصل إلى أعز موقع، وأخطر مكان، الأمر الذي يحتّم عليه أن يلتمس معاذاً ليحفظ نفسه منه، مادام أنه يستهدفه في الصميم، وفي النقطة المحورية في وسط صدره، وهو عمق كيانه..

إضافة الصدور إلى الناس لا إلى ياء المتكلم:

ونلاحظ هنا أنه تعالى: أضاف الصدور إلى الناس ﴿فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾[1]،

---

(١) الآية ٥ من سورة الناس.

ولم يضفها إلى ياء المتكلم، فلم يقل: في صدري، مع أنه هو المناسب لكلمة ﴿قُلْ أَعُوذُ﴾، التي هي حديث عن الفرد المتكلم.

وقد يكون ذلك عائداً إلى أن هذا الأمر ليس مما قد يعرض للفرد اتفاقاً، ويسلم منه من عداه، بل هو أمر عام يستهدف جميع الناس، ويلاحقهم بإلحاح بالغ، أشد من الوباء، وهو يتطلب السبل، ويلتمس الحيل للدخول في صميم وجودهم، وإلى صدورهم، ليوسوس فيها، فلا غرو أن يطلب التعوذ منه.

وإذا كانت الوسوسة التي تحمل الشر إلى الناس أشد من الوباء الشامل، الذي يستهدف جميع الناس؛ فإن ذلك يجعل الإنسان أشد حرصاً على طلب المعاذ، وأكثر إخلاصاً في ذلك، لأن درجة الخوف عنده تتنامى وتزداد حين يجد نفسه غير قادر على الاعتصام منه، والاحتراز عنه، ولا يجد ذلك لدى أحد من الناس، مهما بلغوا من العظمة، والقوة والسلطان، وأياً كانت أوضاعهم، وحالاتهم، وانتماءاتهم، وميزاتهم، وقدراتهم.. بل هو يجدهم مثله واقعين في معرض الابتلاء بهذا البلاء، ويعانون ربما أشد مما يعاني من هذا الداء.

الوسوسة في الصدور:

ويلاحظ هنا: أن الله تعالى يتحدث عن أن الوسوسة تكون في الصدور. وهذا بالذات هو ما تحدثت عنه الآيات والروايات.

ولا ننسى أن نذكّر القارئ الكريم هنا بحقيقة مهمة، وهي: أن القرآن الكريم يركز في آياته على أن القلوب التي في الصدور هي مركز إدراك الإنسان: قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾(١).

---

(١) الآية ١٧٩ من سورة الأعراف.

وقال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[١].

وهكذا الحال بالنسبة إلى الوسوسة، والخشوع، والخوف، والقسوة، واللين، وما إلى ذلك. بل إن العلم أيضاً كما في الروايات نور يقذفه الله في القلب.

على أن الله «عز وجل» قد شرح مفهوم الوسواس بشكل عملي وواقعي، حين ركز على أن المستعاذ منه هو الشر الذي يصدر عن ذلك المخلوق، الذي يتعاطى مع الناس، من موقع الوسوسة، والخنوس، والمكر بهم.

ثم بين وشرح أن هذه الوسوسة هي حركة وفعل يصدر ويجري في الواقع الخارجي على صفحة الزمان باختيار من فاعله.

ولم يقتصر على شرح المفهوم بصورة ذهنية وتجريدية، وإنما شرحه بطريقة تشير إلى صدوره المستمر، والى حركة تحققه على صفحة الوجود، فقال: ﴿يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾.

---

(١) الآية ٤٦ من سورة الحج.

الفصل السادس :

مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ..

﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾:

وفي هذه الآية حديث عن أمور عديدة نـذكر منها على سبيل المثال:

ألف: أنها مثلاً قد عبرت بكلمة: ﴿الْجِنَّةِ﴾ وهي صيغة جمع.

وأما بالنسبة لغير الجن، فإنه استعمل ما يفيد الجمع؛ فقال: ﴿النَّاسِ﴾، ولم يقل: «من الإنس والجن».

ب: قدَّم الجِنَّة على الناس.

ج: إن كلمة ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ هل هي تبعيضية أو بيانية؟

د: الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ﴾ هل هو متعلق بـ: ﴿يُوَسْوِسُ﴾ أو بغيرها؟

إلى آخر ما هنالك من نقاط أخرى هامة، أشارت إليها الآية، ربما نوفق لإلفات النظر إليها.

لماذا الحديث عن الأفراد؟!:

بالنسبة للنقطة الأولى نقول:

﴿الْجِنَّةِ﴾: جمع جن. وهذا يعني: أنه تعالى لم يتحدث عن الجنس، وإنما تحدث عن الأفراد، باعتبار أن الوسوسة هي فعل اختياري لأفراد من الجن، وأفراد من الناس، تهدف إلى إضلال المهتدين. أو هي فعل يهدف لإيصال الشر إليهم. فيكون الضلال أحد أفراده.

فالكلام إذن، ليس عن جنس الجن وجنس الإنس، وإنما الكلام عن أفراد منهم يختارون طريق الضلال والإضلال للآخرين، عن سابق قصد وتخطيط لذلك، وبمبادرة منهم.

وليس الإضلال والخناسية والوسوسة من طبيعة الإنس ولا من طبيعة الجن، ولا توجد هذه الخصوصية في جنس الجن و جنس الإنس بصورة ذاتية، بل تنشأ الوسواسية والخناسية من سوء اختيار أفراد من هؤلاء، وأفراد من أولئك.

تقديم الجِنَّة على الناس:

وعن تقديم كلمة: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ﴾ ـ وهي جمع الجن ـ على كلمة: ﴿وَالنَّاسِ﴾ نقول:

لعل ذلك بملاحظة: أن الخناسية والوسواسية تتناسب مع الخفاء والاستتار، الذي يتمثل في الجن بصورة أظهر منه في الإنس، فإن الجن لا يحتاج إلى تكلف التخفي بحسب طبيعته، لأنه هو الذي أجن نفسه وأخفاها، فهو خفي بالنسبة للإنسان.

والجنين يقال له: جنين؛ لأنه مخفي في داخل الرحم، وأجنّه أي أخفاه..

فالذي يناسب الوسواسية والخناسية هو هذا المخلوق الذي له حالة الخفاء عن هذا الذي يريد أن يطغيه، أو أن يضلّه، أو أن يوسوس له بصورة عامة.

في الآيات لف ونشر مرتَّب:

ومن جهة أخرى: فإن الله عز وجل قد ذكر في هذه الآية شياطين الجِنَّة قبل شياطين الناس، على عكس ما ذكره في الآية التي سبقتها، حين تحدث أولاً عن الوسواسية، ثم الخناسية.

وربما كان سبب ذلك: هو أن الوسوسة تعني الخفاء بحسب طبعها.

أما الخناسية فهي إقدام، ثم إحجام. أي أن الشيطان يقدم على الإغواء، حتى إذا شعر بأن أمره قد ظهر، فإنه يخنس ويتراجع، مترصداً الفرصة ليعود من جديد حين يشعر بعدم الإلتفات إليه، أو يطمئن بأنه قد تمكن من أن يخفي نفسه من جديد.

فالخناسية تستبطن تكلّف الاستتار والإخفاء. وهذا يتناسب مع كون الخناسية هي من الناس الذين يحتاجون إلى التكلف في ستر محاولاتهم. أما الوسواسية فهي تناسب شياطين الجن.

فظهر أنه يوجد لف ونشر مرتب، لوحظ فيه نوع من التناسب بين الآيتين: ﴿**مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ**﴾، ثم قال: ﴿**مِنَ الْجِنَّةِ**﴾ التي تناسب الوسواسية ﴿**وَالنَّاسِ**﴾ التي تناسب الخناسية، وإن كان الإنسان قد يلتفت إلى وسوسة الجن، فيضطره إلى التراجع والتخفي؛ ليأتيه بمظهر جديد، فيتعامل بطريقة الخناسية.

ويؤيد ذلك ويؤكده: أن الروايات قد عبرت عن الشيطان بـ ﴿**الْخَنَّاسِ**﴾، مع أن الشيطان مخفي بطبيعته، لا يظهر بصورة صريحة.

ولكن بما أن الوسوسة قد تظهره لمن يوسوس له حين يلتفت إلى أن ثمة وسوسة شيطانية، فإنه يضطر إلي أن يخنس ويتراجع، ليأتيه من طرف خفي، ليستطيع أن يضله.

فالوسواسية والخناسية كلاهما إذن قد تكونان معاً من فعل شياطين الجِنَّة.

غير أن الحديث في الآيات قد جاء وفق الحالة الطبيعية والعفوية، التي ظهر منها وجود لف ونشر مرتب في الآيات كما قلنا، لأن الخفاء في الوسواس أكثر منه في الخناس. والخفاء أيضاً في الجِنَّة اكثر منه في الناس.

وفي الخناسية يحتاج إلى الظهور والخفاء، فهو يتراجع بعد أن يظهر ليصدق عليه أنه خناس.

ومصداق هذا ظاهر في مجالات التعامل مع شياطين الإنس الذين يأتون بصورة ظاهرة في بادئ الأمر، ويتكلمون مع من يريدون إغواءه، بطريقة خاصة يحاولون من خلالها إخفاء شيطنتهم، حيث يظهر أحدهم نفسه بصورة الناصح والغيور على المصلحة، والمحب والودود، فإذا ظهرت خدعته، وعرفت نواياه يخنس ويتراجع، ثم يعود بصورة أخرى، يحاول فيها أن يغلف كلامه بما يمنع من افتضاح أمره. وهذه هي الخناسية.

فشياطين الإنس أقرب إلى الخناسية منهم إلى الوسواسية؛ ولكن الخناسية تستبطن الوسوسة؛ لأنهم يزرعون فكرتهم في الصدور بصورة ذكية؛ ليندفع الإنسان إلى ما يريد هذا الوسواس أن يدفعه إليه.

﴿مِنَ﴾ بيانية:

ثم إنه يحتمل أن يكون قوله: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ وصفاً لذلك الوسواس

الخناس، ليبين حاله من أي فريق، ومن أي نوع، وعلى أي حال هو، من قبيل قولك: خاتم من حديد، أي من جنس الحديد. ويقول هنا هذا الوسواس الخناس من نوع الجِنَّة والناس.

وهناك احتمال آخر ذكره بعض المفسرين وهو أنه متعلق بكلمة يوسوس.

ولعل مـا ذكرناه هو الأظهر والأنسب، فمن أراد ملاحقة ذلك، فليراجع التفاسير.

مقارنة بين سورة الفلق وسورة الناس:

ثم إننا إذا قارنا بين سورتي الفلق والناس، فسنجد أنهما وإن كانتا تشتركان في الاستعاذة لكن في سورة الفلق استعاذة واحدة ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ**﴾ ولكن من شرور أربعة: ﴿**مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ**﴾.

وهذه الأمور الأربعة هي من الأمور التي تستهدف حياة الإنسان العادية، ويتعرض فيها الإنسان للعدوان الذي ينشأ عند فساد كبير في سعادته واستقراره.

أما في سورة الناس، فالكلام هو في موضوع الضلال والهدى. وقد استعاذ ثلاث مرات أعطى فيها لكل حالة مضموناً يختلف عن مضمون الحالة الأخرى، فقال: ﴿**..رَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ**﴾.

فهذا يشير إلى أهمية الأمر الذي يرتبط بحالة الضلال والهدى، والإيمان وعدم الإيمان، فإن ما ينشأ عنه الإخلال بحالة التوازن الإيماني، والإنساني، والعقلي، والفكري، والنفسي، والروحي، يبقى هو الأمر الأهم والأخطر في

حياة هذا الإنسان، وفي كل وجوده.

فكان لا بد من الإستنفار الشامل لمواجهة هذا الخطر؛ فكان أن تكررت الاستعاذة وتعددت، واختلفت أوصاف المستعاذ به: بالرب، بالملك، بالإله، لأن الأمر بالغ الأهمية والحساسية، ما دام أنه قد يؤدي إلى خسران الدنيا والآخرة.

أما الأخطار الدنيوية من قبيل خطر «ما خلق»، والـ «غاسق إذا وقب». والنفاثات في العقد. والحاسد إذا حسد، فيكفي لدفعها أن تستعيذ مرة واحدة بالذي يحميه ويرعاه من موقع ربوبيته له.

جنود إبليس:

وقـد يقال: إنه ربما يستشعر من الآيات أنها تستبعد الشيطان مباشرة، وتتجه نحو الاستعاذة من جنوده وأتباعه، من الجِنَّة والناس. وكأنَّ إبليس لا يقدر على ممارسة عمله أو دوره إلا من خلال الجِنَّة والناس.

والجواب:

أن جنود إبليس الذين وصلوا إلى درجة الشيطانية هم الذين يقومون بإغواء البشر، لأن إبليس في نهاية المطاف حين يريد أن يعمل على تنفيذ ما يريد، فإنه سوف يعمل على إيجاد الوسائل التي توصله إلى ما يريد الوصول إليه، فيغوي بعضاً من الجن والإنس، ويصيرهم شياطين، ويجندهم لتنفيذ ما يطلبه منهم، وقد أشار تعالى إلى هؤلاء الجنود.

فقال: ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾(١).

---

(١) الآية ٩٥ من سورة الشعراء.

وقال: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾(١).

وقال: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾(٢).

ولا يجب أن يأتي إبليس بنفسه، لإغواء الناس، فإن من يرسلهم لهذه المهمات لهم شخصية إبليسية أيضاً.

(١) الآية ٢٧ من سورة الأعراف.

(٢) الآية ١١٢ من سورة الأنعام.

كلمة الختام:

إن ما تقدم حصيلة جولة أرجو أن تكون موفقة في آفاق السورة المباركة: «الناس». وربما يكون القارئ قد شعر: أن هذه الجولة لا تشتمل على أقوال المفسرين وشروحاتهم.

كما أنها لم تلتزم بطرح الأفكار بطريقة منهجية وأكاديمية، وإنما التزمت خط العفوية، سواء في التعبير، أو في المنهج.. وهذا ما يدعونا إلى تجديد طلب العذر من القارئ الكريم الذي قد لا يروق له هذا المنحى كثيراً؛ لما قد يسببه له من متاعب في ملاحقة الفكرة بصورة دقيقة وعميقة.

والله نسأل أن يوفقنا لأن نقول التي هي أحسن، وأن يعطينا ثواب من أحسن عملاً، بفضله ومنّه وكرمه، إنه جواد كريم، ورؤوف بعباده رحيم، والحمد لله رب العالمين.

جعفر مرتضى العاملي

٦ شعبان ١٤١٩ هـ.ق

الفهارس:

تفسير سورة الفلق

تقديم: ٧

الفصل الأول: ممهدات.. ..... ٩

سورة الفلق: ١١

المعوِّذتان في كلام المعصوم: ١١

سورة الفلق ست آيات أو خمس!!: ١٤

المعوذتان عند ابن مسعود: ١٧

الفصل الثاني: شأن نزول سورة الفلق.. .....٢١

هل المعوذتان مكيتان؟!: ٢٣

حديث سحر النبي ﷺ: ٢٣

حديث سحر النبي في الميزان: ٢٩

كذب الرواية لا يعني تبرئة اليهود: ٣٣

ثلاثة دنانير فقط: ٣٤

سبب موت لبيد: ٣٤

الرسول بلا شعر؟!: ٣٥

لا يأكل ولا يشرب: ٣٦

ابن الأعصم يخدم الرسول ﷺ: ٣٦
تأثير السحر في الأنبياء: ٣٧
الفصل الثالث: قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ.. .....٤١
بداية: ٤٣
﴿قل﴾: ٤٣
كلمة ﴿قل﴾ من القرآن: ٤٣
أهمية كلمة قل: ٤٤
التوازن هو الهدف: ٤٥
قل.. خطاب لمن؟!: ٤٧
﴿أعوذ﴾: ٥٠
الاستعاذة بالله أو بالرب: ٥٢
برب الفلق: ٥٢
مما سبق: ٥٣
أعوذ بالرحمان منك: ٥٤
الرحمة الإلهية لا تعني الاتكالية: ٥٥
صفات الله في مرآة الاستعاذة: ٥٧
بين الحقائق والأوهام: ٦٠
الكمالات في الحقائق والأشكال: ٦٢
ما المراد بالخلق؟!: ٦٣

الفصل الرابع: مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ.. .....٦٥

التعوذ من الشرور: ٦٧

هل هذا تكرار؟!: ٦٩

المراد من الغاسق: ٦٩

التخصيص بعد التعميم: ٧١

مرحلة الخفاء الأولى: ٧١

التعوذ من شر الغاسق: ٧٤

الفصل السادس: وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ٧٩

النفاثات في العقد: ٨١

التعوذ من الشيء لا يعني الابتلاء به: ٨٢

لماذا خصوص النساء النفاثات؟!: ٨٣

شرور الحاسد: ٨٦

إذا حسد: ٨٧

هذه الآية أشد من سابقاتها: ٨٨

كلمة أخيرة: ٨٩

تفسير سورة الناس:

مقدمة: ٩٥

الفصل الأول: ممهدات.. .....٩٧

من الحديث الشريف: ٩٩

هذه السورة وحديث سحر النبي ﷺ: ١٠١

الفصل الثاني: قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ١٠٣

البسملة:.....١٠٥

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾:.....١٠٥

من هو المخاطب بكلمة: ﴿قُلْ﴾:.....١٠٧

قوله تعالى: ﴿أَعُوذُ﴾:.....١٠٩

الفرق بين أعوذ وألوذ:.....١٠٩

المستعاذ به: ١١٠

لماذا يعيذ؟!: ١١٠

قوله تعالى: ﴿بِرَبِّ النَّاسِ﴾: ١١١

الخطاب للشخص الواحد:.....١١٢

مثال ونظير: ١١٣

لماذا استعاذت مريم بالرحمن لا بربها؟: ١١٥
الربوبية والمحبة لا تحتم التدخل للحفظ: ١١٦
برب الناس هي الأوفق بالمراد: ١١٧
إختيار كلمة ﴿النَّاسِ﴾ دون سواها: ١١٨
الفصل الثالث: مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ.. .....١٢١
قوله تعالى: ﴿مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ﴾: ١٢٣
لماذا بدون حرف عطف؟: ١٢٤
لم يقل: مالك الناس: ١٢٥
تكرار كلمة الناس: ١٢٥
لماذا لم يقل: رب العالمين؟: ١٢٥
لم يقل: برب الإنسان: ١٢٧
﴿رَبِّ النَّاسِ﴾: ١٢٧
﴿مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ﴾: ١٢٨
و ثمة فرق آخر: ١٣٠
الفصل الرابع: مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ.. .....١٣٣
ما هـو الشر؟!: ١٣٥
﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾: ١٣٦
اللغة القرآنية: ١٣٧

﴿الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾: ١٣٨
إبليس وجنوده: ١٤١
لا بد من الحذر: ١٤٢
الوسواس مصدر أو اسم مصدر: ١٤٣
من شر الوسواس، لا من شر الوسوسة: ١٤٤
هل الوسواس خاص بفريق دون فريق؟!: ١٤٥
وسواس صيغة مبالغة أم مصدر؟!: ١٤٦
معنى الوسوسة: ١٤٨
﴿الْخَنَّاسِ﴾: ١٤٩
الفصل الخامس: الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ١٥١
لا تكرار في الآيات: ١٥٣
لماذا في صدور الناس؟: ١٥٤
إضافة الصدور إلى الناس لا إلى ياء المتكلم: ١٥٤
الوسوسة في الصدور: ١٥٥
الفصل السادس: مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ١٥٧
﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾: ١٥٩
لماذا الحديث عن الأفراد؟!: ١٥٩
تقديم الجنة على الناس: ١٦٠
في الآيات لف ونشر مرتَّب: ١٦١

﴿مِنَ﴾ بيانية:.....١٦٢
مقارنة بين سورة الفلق وسورة الناس: ١٦٣
جنود إبليس: ١٦٤
كلمة الختام: ١٦٧
الفهارس: ١٦٩